العقيدة والعبادة والسلوك

في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية

كتاب يصلح لأن يكون دليلاً إلى الاعتقاد السليم المطلوب، والسلوك الإسلامي الجامع، ودستوراً للحياة، للمسلم الطالب للحق، الباحث عن الأسوة النبوية في الأعمال والأخلاق.

بقلم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم – الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيدة والعبادة والسلوك

في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية

الطّبعَة الثّانيَة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار القلم ــ الكويت

شارع السور ــ بجانب وزارة الخارجية ــ عمارة السور

ص . ب ٢٠١٤٦ ــ هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ ــ ٢٤٥٨٤٧٨ ــ برقياً : توزيعكو

مقدّمة

نظرة في الكتب التوجيهية التربوية
الممثلة للمكتبة الدينيّة في مختلف العصور
والحاجة إلى تأليف جديد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، من العلماء المصلحين ، والمربين المرشدين .

وبعد فقد تكاثرت الكتب والمؤلفات فى مقاصد الشريعة الاسلامية وأحكام الدين ، واتسعت حياة المسلم وتشعبت ، وتنوع المجتمع الاسلامى ، وتنوعت حاجاته ، وعلله وأسقامه ، ومطالبه ومقتضياته ، وبدأت المكتبة الاسلامية الدينية تتسع وتمتد ، وتتضخم تضخماً ، لا يصعب على المسلم المعاصر الاحتواء عليها فحسب ، بل يصعب عليه كذلك التخير منها والانتفاع بها إجمالياً ، لذلك وجد بطبيعة الحال — فى طبقة المعنيين بشئون هذه الأمة ، واتجاهات هذا المجتمع ، والمطلعين على كثرة متطلبات الحياة ومشاكل العصر ،وحيرة

المسلم بها ، شعور بالحاجة إلى كتاب منقح مركز يكون مرشداً ودليلا للمسلم فى العبادات والمعاملات ، والأخلاق والعادات ، وقانوناً ودستوراً للحياة ، وهى حاجة إنسانية ، وشعور طبيعى لا يخلو عنه زمان ، ولا يستثنى منه إنسان ، فقد روى أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ :

« إن شرائع الاسلام قد كثرت على فأنبئنى منها بشىء أتشبث به » .

وقد لقى من الرسول الأكرم والمربى الأعظم استجابه كريمة ، فلم يلمه ﷺ ، ولم يتهمه بقصور الهمة ، والانصراف عن التضلع بالعلم والدين ، بل قال : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل[1] » .

وعن أبى عمرو (وقيل أبي عمرة) سفيان بن عبد الله رضى الله عنه ، قال قلت : يا رسول الله ، قل لى في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قال :« قل آمنت بالله . ثم استقم »[2] .

فكان ذلك حافزاً قوياً ، ومشجعاً كبيراً لمن يخرج للمسلمين كتاباً يتخذونه دستوراً لحياتهم وغنية وكفاية إلى حد خاص – فى

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الأدب ، باب فضل الذكر .
(٢) رواه مسلم .

معلوماتهم الدينية ، وأعمالهم اليومية ، وأخلاقهم الاسلامية ، ومعيشتهم الفردية والجماعية .

وكان أكثر من تفطن لهذه الحاجة واستجاب لها استجابة علمية وتجلى هذا الاتجاه عنده فى أروع مظاهره ، الامام حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى (م ٥٠٥هـ) فألف كتابه الخالد الطائر الصيت ، « **إحياء علوم الدين** » .

ويبدو أن المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب مرشداً ومربياً للطالبين ، مغنياً عن غيره ، قائماً مقام المكتبة الاسلامية ، فجعله يحتوى على العقائد ، والفقه ، وتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، والحصول على مرتبة الاحسان ، مشتملا على الترغيب والترهيب ، وعلى المواعظ الحكيمة الرقيقة المرققة للقلوب ، يثيرها على الأيمان والعمل الصالح ، وتهذيب النفس ، ويحذر من أمراض القلب ، ويصف علاجها ، ورغم ما ورد فى الكتاب من مواد ، من كلام الفلاسفة ، وأحاديث ضعيفة ، إلى غير ذلك من مآخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزى [٣] وشيخ الاسلام ابن تيمية [٤] مع اعترافهما بفضل الكتاب ، فقد كان له من الاقبال والعناية

---

(٣) انظر « المنتظم » لابن الجوزى ، ج / ٩ ، ص / ١٦٩ ، ١٧٠ طبع دائرة المعارف ، حيدر آباد .

(٤) انظر فتاوى ابن تيمية ، ج / ٢ ، ص / ١٩٤ .

وحسن التلقى والقبول والانتشار والذيوع ، والثقة والاعتماد ، ما لم يسمع عن كتاب آخر ، بعد الصحاح الستة ، وعدد قليل من كتب الدين ، واتخذه الناس جيلا بعد جيل وعصراً بعد عصر – فى أرجاء العالم الاسلامى المترامية ، دستوراً ونبراساً للحياة ، واستمر ذلك بعد عصر الغزالى حتى لم ير إمام جليل ، مشهور بالنقد الحر الجرىء ، ومؤلف كتاب « **تلبيس إبليس** » وهو العلامة الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (م ٥٩٧هـ) مندوحة عن تلخيصه وتهذيبه ، والنسج على منواله ، وألف كتاباً وأسماه ، « **منهاج القاصدين** » [٥] وعنى كبار العلماء بشرح الاحياء ونقده ، فقام الحافظ الامام زين الدين العراقى صاحب « **الألفية** » بتخريج أحاديث الاحياء من الأخبار ، وشرحه نابغة الهند السيد مرتضى بن محمد البلكرامى المشهور بالزبيدى (م ١٢٠٥ هـ) فى عشرين مجلداً ، وأسماه « **إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين** » والكتاب يكاد يكون موسوعة ، وقد قامت مدرسة مستقلة فى التربية والسلوك على أساس كتاب الاحياء ، تسمى « **الطريقة الغزالية** » وكانت منتشرة فى حضرموت وبعض البلاد العربية .

وقد ألف الامام الغزالى كتاباً آخر فى الفارسية على منوال كتاب الاحياء ، راعى فيه الاختصار والتيسير ، وثقافة أبناء هذه

---

(٥) وقد اختصر هذا الكتاب أحمد بن عبد الرحمن بن أبى عمر بن قدامة المقدسى ونشر باسم : « مختصر منهاج القاصدين » .

اللغة ، يكاد يكون مختصر الاحياء فى الفارسية ، أسماه « **كيميائى سعادت** » كان له انتشار وذيوع فى الأوساط الدينية التى تطالع الكتب الفارسية وتستفيد منها ، أو تميل إلى الاختصار والسهولة (٦) .

ويلى كتاب « إحياء علوم الدين » فى هذا الاتجاه التأليفى وتحقيق حاجة العصر ومطالب طلاب الاصلاح والتربية . وخاصة لمن وضع يده فى يد شيخ مرب ، وداع مصلح ، وأراد السير على طريق الشرع والسنة وتهذيب الأخلاق ، كتاب : « **غنية الطالبين** » للامام عبد القادر الكيلانى (م ٥٦١ هـ) واسم الكتاب « الغنية لطالبى طريق الحق عز وجل » ألفه مؤلفه العظيم الذى هو أحد أئمة الاسلام وكبار المربين للأمة ، للطالبين الصادقين من أصحابه وتلاميذه ، ومن انخرط فى سلكهم ، لمعرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسنن ، والهيئات ، ومعرفة الصانع عز وجل ، بالآيات والعلامات ، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية ، ومعرفة أخلاق الصالحين ، ليكون عونا لهم على سلوك طريق الله عز وجل ، وامتثال أوامره وانتهاء نواهيه ، وذكر فى الكتاب أحكاماً لا بد من معرفتها

---

(٦) وللامام الغزالى رسالة صغيرة بالعربية فى نفس الغاية ، اسمها « بداية الهداية » قدم لها وعلق عليها فضيلة الشيخ محمد الحجار من علماء حلب ، يقوم بنشرها وتوزيعها مكتبة دار الدعوة فى حلب ، وهى رسالة مفيدة منيرة للأذهان .

للمسلم الواعى ، من الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وذكر الآداب الاسلامية الثابتة من الكتاب والسنة ، والسيرة النبوية ، كأنه كتاب من لا يحضره الفقيه والمحدث والمعلم والمربى ، مع شيء من مجرباته ، وأوراده ، وهو فى ذلك فقيه متمسك بالسنة وعالم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رحمه الله ، وقد عقد فى الكتاب بابا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم شرح عقيدة أهل السنة ، وهو فى ذلك على مذهب السلف من أتباع الامام أحمد ابن حنبل فى مسألة الصفات والرد على الفرق الضالة عن طريق الهدى .

وقد رأى – رحمه الله – أن يضم إلى هذا الكتاب مجالس التذكير والوعظ وفصولا فى فضائل الشهور والأيام ، لينوب الكتاب عما اشتهر به رحمه الله من مجالس الذكر والوعظ ، التى انتفع بها فى حياته خلائق لا تحصى ، وقد توسع فى هذه الفصول توسعاً أليق بالمذكرين منه بالمحدثين ، وعين الأوراد والأذكار لأهل طريقته ، وختم الكتاب بآداب المريدين وأخلاقهم وسلوكهم .

وقد ظل الكتاب دستوراً لمن انتمى إلى طريقته ولمن قصد تنظيم حياته وضبطها فى ضوء الكتاب والسنة وعقيدة السلف الصالح النقية ، وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، ويبلغ عددهم إلى مئات الألوف فى القارتين آسيا وأفريقية .

وعلى هذا الطراز من النية والقصد ، صنف المحدث اللغوى الجليل العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى

(م ٨١٧ هـ) كتابه « **سفر السعادة** »[٧] وقد عنى فى الكتاب بعرض السيرة النبوية باختصار ثم بسننه وتعليماته فى العبادات والمعاملات ، وفى مختلف أحوال الحياة وبالأخلاق النبوية ، والشمائل المرضية ، فالكتاب يدور حول السيرة والطريقة النبوية ، فى الحياة الفردية والاجتماعية ، ليتخذه المسلم الراغب فى معرفة السنن والطريقة المرضية النبوية دستوراً فى حياته ، وقد ضمن الكتاب فصولا فى الطب النبوى ، وفى مداواة المرضى ، والكتاب يقع فى مائة وخمسين صفحة من القطع المتوسط .

إلا أنْ أكبر مجهود فى هذا الاتجاه وأعظمه قبولا وانتشاراً هو كتاب « **زاد المعاد فى هدى خير العباد** » للامام الحافظ ابن قيم الجوزية (م ٧٥١ هـ) فانه يحتوى على مواضيع مختلفة من السيرة ، والسنة ، والفقه ، وعلم الكلام ، والتزكية والاحسان ، وأُعتقد أنه ليس هناك كتاب جامع ألف للعمل والاصلاح بعد كتاب « إحياء العلوم » (للامام الغزالى) بل وقد يفوقه من ناحية التحقيق والاستناد والتطبيق بين الكتاب والسنة ، ويبدو أنه أراد أن يؤلف كتاباً ينوب عن المكتبة الدينية إلى حد كبير ، ويقوم مقام مرب ومرشد ، وفقيه ومحدث ، ولقد شغف بهذا الكتاب وأولع به من كانوا يتذوقون

---

(٧) واسمه « صراط مستقيم » المعروف بـ « سفر السعادة » ، وأصله بالفارسية ، ونقله إلى العربية أبو الجود محمد بن محمود المخزومى المصرى (م ٨٠٤ هـ) .

الحديث ويحرصون على اتباع السنة والآداب النبوية ، وكانوا يهتمون بها . .

وقد يلاحظ أنه خليط للعلوم الاسلامية كلها ، من السيرة والحديث والفقه ، والتاريخ والكلام ، والنحو والصرف ، ولكنه رغماً من ذلك كله يعتبر من أهم كتب الاسلام الذى يقوم مقام مكتبة بأسرها ، ووجوده كوجود عالم كثير الفنون متبحر ومحقق فى العلوم ، نال به آلاف مؤلفه من طلاب الحق ، ومتبعى السنة هداية دينية ، وغذاء روحياً ، وحلاوة إيمانية [٨] .

ومن هذه المؤلفات التى ألفت لهذا الغرض (التوجيه الدينى والتربية الخلقية) كتاب : « شرعة الاسلام إلى دار السلام » للشيخ الجليل ركن الاسلام واعظ القوم ، محمد بن أبى بكر السمرقندى [٩] ، ألفه المؤلف لتهذيب أطفال أهل الايمان ، وقد وصفه فى بعض كلامه بقوله « إنه أول ما يلقن به أطفال أهل الايمان وأحق ما يتحفظه أهل الايقان ، بل لا مندوحة دونه لسالك سبيل

---

(٨) ملتقطاً من كتاب « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » ، الجزء الثانى للمؤلف .

(٩) مع الأسف لم نعثر على ترجمته فيما عندنا من كتب السير والتراجم ، حتى لانستطيع أن نحدد عصره ونعرف سنة وفاته ، إلا أن صاحب « كشف الظنون » الحاجى خليفة ذكر الكتاب وقال : « إنه كتاب نفيس ، كثير الفوائد » ، وقال « إنه كتاب ما رأت عين الزمان مثله »

الهدى كيلا يتردى به الهوى فى هوة الردى [١٠] والظاهر أن المؤلف قصد بهذا الكتاب أن ينتفع به أعقابه ويتخذوه دليلا ومرشداً ، فقد قال فى مقدمة الكتاب : « والمأمول من فضل الكريم الوهاب ، أن يبارك لمن أخلفه من الاعقاب ، بما أودعته هذا الكتاب ، إنه ولى الاجابة والايجاب ، وإليه المصير والمآب »[١١] وقد ذكر ما ثبت بالسنة من عقائد الدين وملة الاسلام ، وينهج فى ذلك نهج السلف من المحققين وأنصار السنة النبوية ، وذكر منهجا للمسلم فى العقيدة والعمل والأخلاق ، وتعرض لأخلاق العلماء ، وقد ذكر فيه تجاربه وملاحظاته كخبير مجرب ، وذكر آداب المتعلم وحقوق المعلم ، وجاء فى ذلك بتوجيهات دقيقة ، وفى الكتاب مواد تخضع للنقد الفنى والبحث العلمى فى ضوء علم الحديث المختمر ومعرفة السنة الصحيحة - على حسن نية المؤلف وصلاحه - ولا تقبل على علاتها ، شأن القارىء الناقد المميز مع كتاب الاحياء وكتب الصوفية [١٢] .

---

(١٠) الكتاب ص / ٣ .

(١١) المقدمة ص / ٤ .

(١٢) اكتشف هذا الكتاب المطمور فى ركام من المخطوطات أخونا الفاضل السيد محمد نيناز ، ووجد نسختين من هذا الكتاب فى مكتبة متحف سالارجنك فى حيدر آباد (SALAR JANG MUSEUM) والثالثة فى المكتبة المركزية الحكومية التى كانت تُعرف سابقاً بالمكتبة الآصفية ، وعنى بتحقيقه =

ومن الكتب المقبولة الميسرة التى نفع الله بها فى عصرها خلقاً كثيراً ، كتاب « **ما لابد منه** » للامام العالم الكبير العلامة المحدث ثناء الله العثمانى البانى بتى (م ١٢٢٥ هـ) المعروف بالقاضى ثناء الله البانى بتى [١٣] بدأ فيه بالعقائد التى أصبحت شعاراً لأهل السنة والجماعة ، واحتوت عليها كتب العقائد وعلم الكلام وذلك بطريق مبسط . وأسلوب سهل تتناوله أفهام الناشئين ، حتى عقول العواتق فى الخدور [١٤] ثم عقد فصولا فِي الاهتمام بالصلاة ، ومسائل الطهارة ، وأحكام الصلاة بأنواعها ، وأحكام الزكاة والصوم ، مع الاشارة إلى فريضة الحج ، والإحالة على الكتب الموسعة فى أحكامه ومسائله ، واختار من هذه الأحكام والمسائل ما يكثر إليها الاحتياج

= وتمييز الاختلاف بين هذه النسخ وعلق على الكتاب وخرج الأحاديث ، والكتاب ماثل للطبع .

(١٣) قال الشيخ غلام على العلوى الدهلوى فى كتابه « المقامات » إنه كان مع صفاء الذهن وجودة القريحة ، وقوة الفكر وسلامة الذهن ، بلغ إلى رتبة الاجتهاد فى الفقه والأصول ، له كتاب مبسوط فى الفقه ، التزم فيه بيان المسألة مع مآخذها ودلائلها ، ومختارات الأئمة الأربعة فى تلك المسألة ، وله رسالة مفردة فى أقوى المذاهب المسمى بـ « الأخذ بالأقوى » وله تفسير القرآن فى سبعة مجلدات كبار ، (نقلا من « نزهة الخواطر » ج / ٧) .

(١٤) ظل الكتاب مدة طويلة من المقررات الدراسية لبنات المسلمين وأبنائهم والسيدات فى بيوت الهند الاسلامية ، وقد أدرك المؤلف آخر هذا العصر ونهايته .

ويعم وقوعها ، محترزاً فى ذلك عن التطويل والتقعير وذكر المسائل النادرة ، ثم جاء بفصل خاص فى التقوى مع مراعاة روح العصر والاشارة إلى ما عم الابتلاء به ، وأنواع البيع والشراء . والمعاملات المشروعة وغير المشروعة فى زمانه ، وفصل فى آداب المعاشرة وحقوق الناس والمعاصى والمحظورات المنتشرة فى زمانه ، والتى استهان بها الناس واستصغروها ، وأشار فى ذلك إلى رذائل الأخلاق وغوائل النفس وعادات الجاهلية ، مع الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأخلاق الفاضلة ، ثم عقد فصلا خاصاً فى الاحسان ، وهو تزكية النفس وإخلاص الدين لله ، والحصول على لبه وحقيقته ، وذلك بكلام وجيز ، وإشارات تكفى العاقل وتنير له السبيل .

ومزية الكتاب اقتصاره على ما لابد من معرفته والتمسك به للمسلم المتوسط المشغول ، ولمن كان فى سن المراهقة الطبعية أو العقلية ، ولذلك ظل هذا الكتاب مدة قرن وزيادة من المقررات الدراسية فى الأسر الاسلامية ، والبيوتات الشريفة ، وكان لابد من دراسته ومطالعته فى أول مراحل التعليم الدينى ، والكتاب باللغة الفارسية – لغة المسلمين الدراسية فى شبه القارة الهندية فى ذلك العصر يحتوى على ١٥٠ صفحة بالقطع المتوسط .

ومن أحسن ما ألف فى هذا الموضوع ولهذا الغرض ، وكان أثره عميقاً فى النفوس والأخلاق ، والعقائد والأعمال ، ونفعه واسعاً وكبيراً ، كتاب « **الصراط المستقيم** » وهو من إفادة إمام الدعوة الاسلامية وكبرى حركات الجهاد والاصلاح فى شبه القارة الهندية فى

القرن الثالث عشر الهجرى ، السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ) وتأليف رفيقه ووزيره العلامة محمد إسماعيل الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ) وزميله العلامة الشيخ عبد الحى بن هبة الله البرهانوى (م ١٢٤٣ هـ) بالفارسية [١٥]

وفى الكتاب تعليمات واضحة وتوجيهات نيرة للسير على صراط الاسلام المستقيم ، ومحجة الشريعة البيضاء ، والسنة السنية الغراء ، وتفضيل طريق النبوة على طريق الولاية ، وشرحها ، والقرب بالفرائض على النوافل ، وفى تصحيح العقيدة ، وإخلاص الدين لله ، والتحذير من أنواع الشرك والبدع على اختلاف أنواعها ، وخصوصاً من البدع التى كانت فاشية فى عصره فى أوساط الصوفية والمتعبدين ، والتى نشأت بتأثير الفلاسفة والملحدين ، والباطنية والمعطلين ، والشيعة الرافضة ، والغلاة المبتدعين ، وكذلك ما انتشر منها وغزا المجتمع الاسلامى وجاس خلال الديار باختلاط المسلمين بالوثنيين ، من التقاليد والأعراف والشعائر والعادات الجاهلية ، فى الأفراح والأعراس والمآتم ، والمناسبات الاجتماعية والعائلية ، ومانبت من النابتة (كالحشائش الشيطانية) فى حقل حياة المسلم ، بسبب الجهل للكتاب والسنة ، وبعد العهد عن الاشتغال بالحديث ، تلى ذلك فصول فى تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفس ، مع بيان مكايد النفس

---

(١٥) وقد عربه الشيخ عبد الحى المذكور أثناء إقامته بالحجاز بأمر من شيخه السيد أحمد ، وطلب من الراغبين فى ترجمته ، ١٢٣٧هـ .

ومصايد الشيطان والأخلاق الرذيلة ، ومايخل بالعبادة والوصول إلى الله ، والحصول على درجات الكمال الانسانى والايمانى ، وشرح معالجاتها ، وطرق التغلب عليها وإزالتها [١٦] .

ومن مزايا هذا الكتاب أنه مزج التعليمات فى الأذكار والعبادات وإصلاح العقيدة والسلوك إلى الله ، بالدعوة إلى الله ، والجهاد فى سبيل الله ، والعمل بالعزيمة والاهتمام بأمر الأمة ، والتهيؤ لاعلاء كلمة الله . والانتصار لدين الله ، ومحاولة إظهاره وتغليبه على كل دين ، وعلى كل منهج وطريق .

وقد أضيف إلى أهمية هذا الموضوع وحاجة الجيل الجديد إليه ، ما اتسم به هذا العصر من حب الاختصار ، والاقتصار على الضرورى المفيد [١٧] والشعور البالغ إلى حد الحساسية الزائدة بقيمة الوقت وسرعة مضيه ، والزهد فى كل شيء طويل معقد ، وما يجهد

---

(١٦) ويدخل فى هذا الموضوع كتاب « تعليم الدين » للمصلح والمربى الكبير فى عصرنا هذا الشيخ أشرف على بن عبد الخالق التهانوى (م ١٣٦٢هـ) والكتاب يقع فى ١٤٤ صفحة ، ويحتوى على فصول فى العقائد والتصديقات ، والأعمال والعبادات والمعاملات وآداب العشرة ، وسلوك الطريقة ، وله كتاب أوسع منه وأكثر انتشاراً وهو كتاب « بهشتى زيور » بمعنى « حلية الجنة » ألف أصلا للسيدات والبنات المسلمات ولكن انتفع به المسلمون على اختلاف طبقاتهم ، ولا يزالون .

(١٧) حتى سمى هذا العصر بعصر الشطيرة (Sandwich Age)

النفس ويستنفد طاقتها من التأمل والمطالعة ، بل ما يشق على النفس من الفهم والادراك ، مضافاً إلى كل ذلك ما اتسم به هذا الجيل من قصور الهمة وضعف الارادة ، بل وضعف القوى ، هذا مع ما امتاز به هذا العصر من ارتفاع مستوى المعيشة وتعقد المدنية ، وكثرة مطالب الحياة وتكاليفها .

كل ذلك استلزم وضع كتاب جديد يقوم مقام الكتب التى سبقت الاشارة إليها ، فلكل عصر لغة خاصة لا يفهم أهله إلا بها . مع وحدة اللغة التى درجت عليها الأجيال ، ولكل عصر نفسية ومنطق ، وأسلوب لا بد من مراعاته إلى حد ، زد إلى ذلك ما يجِدُّ ويتغير من الأمراض النفسية ومواضع الضعف ومداخل الشيطان فى كل عصر وبيئة ، وما تتفاوت درجاته من الأهمية واللزوم . وكذلك الفهم الديني والتصور الاسلامى يتأثران بعوامل خارجية ، تتغير باختلاف الأزمنة وتأثير الفلسفات والنظم السائدة المسيطرة ، فقد تأثرا فى القرن الثانى فما بعده بالفلسفة اليونانية والفكرة العقلانية المنتشرة فى ذلك العصر ، وهما يتأثران اليوم بالفلسفات الغربية السياسية ، والنظم الاقتصادية والاجتماعية ، وأساليب تنظيم الحياة والمجتمع فى هذا العصر ، وإن الكتاب الوحيد الذى لا تبلى جدته ولا يؤثر فيه الزمان ، هو كتاب الله المعجز الخالد ، وسنة رسوله الثابتة ، وما صح من حديثه ﷺ أما ما عداهما فهو خاضع لناموس التغير قابل للتطوير والتنقيح ، والحذف والزيادة والاختبار والتلخيص .

وقد كان بعض الاخوان المخلصين يقترحون عليّ من زمان وضع كتاب فى هذا الموضوع ينتفع به رجال هذا الجيل ، ويتخذونه دستوراً ودليلا لحياتهم ، كما انتفع رجال الأجيال القديمة والعصور الماضية بما وضع لهم فى عصرهم ، وكنت أستصغر نفسى وبضاعتى لتحقيق هذا الطلب وأتهيب إدلاء دلوى فى هذا الموضوع ، إذا نظرت إلى قائمة المؤلفين فيه فى القديم ، وجلالة شأنهم وعلو مكانتهم فى العلم والاخلاص ، وزيادة على ذلك كانت أعمالى الكتابية والمخططات التأليفية التى كنت وضعتها ورأيتها وأراها لزاما على ، كانت تعوقنى عن التفكير الجدى فى هذا الموضوع ، فضلا عن اقتحامه والخوض فيه حتى أدتنى إلى ذلك دراستى الشخصية وتجاربى الخاصة واطلاعى المباشر على ما يعانيه المخلصون الطالبون للهداية والنصيحة ، القابلون للحق متى وجد وأينما وجد ، بوجود هذا الفراغ فى المكتبة الاسلامية العصرية ، وعجز الكتب الكبيرة المطولة عن ملء هذا الفراغ وسد هذه الثغرة ، فشرح الله صدرى بالقيام بهذا العمل بحسب مؤهلاتى وبضاعتى فى العلم ، ورأيت أن التأخير فيه إخلال بالواجب وتفريط فى أداء فريضة ، ولعل الله يحاسبنى عليها ، فتوكلت على الله واستخرته ، ودعوته للتوفيق والتيسير .

ووفق الله لتأليف هذا الكتاب ، وقد صببت فيه عصارة دراساتى ، وخلاصة تجاربى ، فى مجال الدعوة والتربية ، ومعرفتى بطبقات الأمة المختلفة معرفة عملية ، فاستفدت من كل ذلك فى تأليف هذا الكتاب ، ولم أتحاش عن عرض مقتطفات من كتاباتى

السابقة إذ كانت وافية بالغرض معبرة عن المعانى التى كنت أريدها ، وقد رأيت فيها غنى وكفاية عن العودة إلى الكتابة فى موضوعها ، فنقلتها باختصار وتعديل وأحلتها إلى مظانها .

وأرجو الله أن ينفعنى بهذا الكتاب أولا ، وينفع الطالبين الصادقين الناصحين لأنفسهم وللدين من المسلمين عامة ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

٧ من شعبان سنة ١٤٠٢هـ — **أبو الحسن على الحسنى الندوى**

٣١ من مايو سنة ١٩٨٢ م — دارة السيد علم الله الحسنى ، رح رائى بريلى

طبيعة هذا الدين وسماته البارزة

إن لكل كائن حي طبيعة خاصة ، وسمات بارزة ، وملامح مميزة ، يتكون منها واقع يعبر عنه « بالشخصية » أو « الذاتية المميزة » ويستوى فى ذلك الأفراد والجماعات ، والشعوب والأمم ، والديانات والفلسفات ، فما هى شخصية هذا الدين وذاتيته المميزة ؟ يجب علينا أن نعرف ذلك قبل أن نخوض فى التفاصيل والتعاليم والآداب المعينة ، فذلك هو المدخل الطبيعى للانتفاع بهذا الدين والانصباغ بصبغته .

يجب علينا أن نعرف أولا أن هذا الدين لم يصل إلينا عن طريق الحكماء والمفكرين ، ولا عن طريق المقننين والمشرعين ، ولا عن طريق المؤسسين للحكومات والفاتحين ، ولا عن طريق الأذكياء الخياليين ، ولا عن طريق الزعماء والقادة السياسيين ، إنما وصل إلينا عن طريق الأنبياء الذين يوحى إليهم من الله ، الذين

---

(١) اختار المؤلف هذا البحث لملتقى الفكر الاسلامى السادس عشر المزمع عقده فى تلمسان (الجزائر) فى الأسبوع الأول من شوال سنة ١٤٠٢هـ (٢٧ / من يوليو ٣ / من أغسطس ١٩٨٢ م) .

ختمت رسالاتهم برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وهو الذى نزلت عليه الآية القرآنية فى حجة الوداع فى يوم عرفة : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾ [٢] والذى يقول عنه القرآن : ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ [٣] فما هى طبيعة هذا الدين ، وما هى سماته البارزة ؟

١ – إن سمة هذا الدين الأولى وشعاره المميز الأول التركيز على العقيدة أولا وقبل كل شيء ، فما زال الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الرسل محمد ﷺ ، يدعون إلى عقيدة معينة يوحى بها إليهم ، يدعون إليها ، ويطالبون بها ، لا يقبلون عنها صرفا ولا عدلا ، ولا يبغون بها عوضاً ولا بدلاً . وإن أفضل حياة خلقاً وسلوكاً ، ورحمة وبراً ، واستقامة وسداداً ، وإن أنجح إنسان فى تأسيس حكومة ، أو إنشاء مجتمع ، أو إحداث انقلاب ، لاقيمة له عندهم إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاءوا بها ودعوا إليها ، ولم يقم كل هذه الجهود على أساسها ، وهذا هو الخط الفاصل الواضح العريض بين دعوة الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وبين الزعماء والقادة القوميين والانقلابيين والثوريين والنفعيين والماديين ، وكل من كان مصدر تفكيره غير مصدر تعاليم الأنبياء وسيرهم ، لسبب من

---

(٢) المائدة – ٣ .

(٣) النجم – ٣ ، ٤ .

الأسباب الأصلية أو الطارئة من التعليم والتربية ، أو رد من ردود الفعل ، أو الحب الزائد لتحقيق النتيجة المطلوبة ، أو قلب نظام أو انتصار أو انتقام [٤] .

والقرآن الذى هو الكتاب السماوى الوحيد المحفوظ من التحريف والباق إلى آخر الأبد والسيرة النبوية التى هى السيرة الوحيدة من سير الأنبياء التى يمكن الاعتماد عليها .والاستفادة منها ، والاحتجاج بها مليئان بالشواهد على ذلك ، ونقتصر على أمثلة قليلة .

من ذلك ما حكاه الله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم ، الذى وصفه بقوله : ﴿ **إن إبراهيم لحليم أواه منيب** ﴾ [٥] وهو قوله تعالى مخبراً وآمراً :

﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده**

---

(٤) وقد سرت هذه النفسية فى كثير من العاملين فى مجال العمل الاسلامى ، والمتذمرين من الأوضاع الفاسدة فى هذا العصر ، فيغتفرون لكل من يهتف بهتاف الثورة ، أو يتحدى قوة جبارة ، كل فساد فى العقيدة ، وانحراف وزيغ فى التفكير ، ويصرفون النظر عن ديانته وسلامة عقيدته ، بل يتهمون كل من يثير هذا الموضوع ، ويتساءل عن عقيدته بالتمالؤ مع القوى الأجنبية .

(٥) سورة هود - ٧٥ .

إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ [٦] .

وربما يختلج في بعض النفوس قوله تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ فلماذا وعد إبراهيم أباه المشرك بالدعاء والاستغفار ؟ وتفسر ذلك آية أخرى في سورة البراءة ، وهو قوله تعالى :

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ [٧] .

وناهيك بأن سورة « الكافرون » نزلت بمكة حين كان الوضع يقتضي شيئاً من اللين والرقة ، وعدم إثارة العداء على أساس العقيدة والعبادة ، وتأجيل ذلك إلى وقت يكون الاسلام فيه أقوى والمسلمون آمن ، ولكن القرآن يقول ، والرسول يعلن :

﴿ قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين ﴾ .

---

(٦) سورة الممتحنة – ٤ .

(٧) سورة التوبة – ١١٣ ، ١١٤ .

ولو كان أحد جديراً بالغض عن عقيدته وصرف النظر عنها ، لنصرته ومنعه وحبه للرسول ﷺ لكان أبوطالب عم الرسول ﷺ فقد قال أصحاب السير عنه : كان للرسول ﷺ عضداً وحرزاً فى أمره ، ومنعة وناصراً على قومه ولكن فى الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على أبى طالب عند موته وعنده أبو جهل وعبد الله ابن أبى أمية ، فقال : يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وابن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبد المطلب .

وثبت فى الصحيح أيضاً أن العباس قال لرسول ﷺ ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك ، فهل ينفعه ذلك ؟ قال : وجدته فى غمرات من النار فأخرجته عن ضحضاح (٨) .

وشاهد آخر ما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة ، قالت قلت : يا رسول الله ! « إن ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟ قال : لاينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » (٩) .

وأوضح من كل ذلك وأصرح ما رواه مسلم فى صحيحه : « عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ أنها قالت : خرج رسول الله ﷺ ، قبل بدر ، فلما كان بحرة الوبرة ، أدركه رجل ، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ

---

(٨) مسلم ، كتاب الايمان .

(٩) صحيح مسلم كتاب الايمان .

حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ : جئت لأتبعك وأصيب معك ، قال له رسول الله ﷺ : « تؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : لا ، قال :فارجع فلن أستعين بمشرك » .

قالت : ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة فقال له رسول الله ﷺ كما قال أول مرة ، قال : « فارجع فلن أستعين بمشرك » قال : ثم رجع فأدركه بالبيداء ، فقال له كما قال أول مرة : « تؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : نعم ، فقال له رسول الله ﷺ : « فانطلق » (١٠) .

٢ - والأمر الثانى أن الدافع الحقيقى لدعوة الأنبياء - وفى مقدمتهم وعلى رأسهم محمد رسول الله ﷺ - وجهدهم وجهادهم ، إنما هو طلب رضا الله تعالى لا غير ، وهو كالسيف الحاد الذى يقطع كل شيء ويأتى على كل شيء ، فلا عرض من متاع الدنيا ، ولا غرض من حكم ورئاسة أو ملك ، ولا طلب علو فى الأرض ، أو سيطرة على الناس ، أو تمتع برفاهية أو بذخ أو غضب أو حمية ، أو ثأر أو ترة ، أو دفاع عن أمة أو بلد يحملهم على ذلك . .

وقد تجلى ذلك فى دعاء رسول الله ﷺ فى الطائف فى أروع مظاهره ، إذ قال : وقد لقى هنا ما لقى من الأذى والجفاء ، ولم

(١٠) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير .

يتحقق الغرض الذى جاء لأجله ، فما أسلم أحد من الناس ، ولكنه يقول فى أدق ساعة وفى أحرج الأحوال النفسية :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى » .

وهنا تتجلى الطبيعة النبوية التى رباها الله تعالى وغذاها ، فيقول : « إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى » [11] .

وهذا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وهو من أولى العزم من الرسل ، يحكى عنه القرآن فيقول : ﴿**فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً**﴾ [12] وقد مضى المدة كلها فى شغل شاغل من الدعوة وانصراف إليها ، والتماس جميع الطرق ، واتخاذ الأساليب كلها لاقناع الناس بها ، فيحكى القرآن قوله : ﴿ **قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً** ﴾ وقوله : ﴿ **ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً** ﴾ [13] فماذا كانت النتيجة ؟ ، حسبنا ما يقول القرآن : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ [14] .

---

(١١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٥٠ وزاد الميعاد ج ١ ص ٣٠٢ واللفظ لزاد المعاد .
(١٢) سورة العنكبوت — ١٤ .
(١٣) سورة نوح — ٩ .
(١٤) سورة هود — ٤٠ .

ولكن نوحاً لم يتسخط ولم يعتب ، ولم يعتبر كل مجهوده قد ذهب سدى ولم يؤثر فى مكانته عند الله ، وقربه إلى الله وكونه من أولى العزم من الرسل ، فقد كان الله راضياً عنه ، وكان راضياً عن الله ، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، بل يقول الله :

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ (١٥).

ويقول القرآن معلماً ومؤدباً لجميع العاملين فى مجال الدعوة والجهاد فى سبيل الله : **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولافساداً ، والعاقبة للمتقين ﴾** (١٦) .

وليس معنى ذلك أن القوة التى يستطيع بها المسلم أن ينفذ بها أحكام الله ويزيل بها العقبات التى تعترض سبيل الدعوة ، ويطفىء بها نائرة الفساد فى الأرض والانتصار للباطل ، ويكون بها البيئة الهادئة الواعية للحياة الاسلامية المثالية والمجتمع المؤمن المتدين الكريم ، شيء يزهد فيه وينصرف عنه ، إنما هى فكرة دخيلة غير سليمة ، ورهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، والله يقول فى معرض المن والإنعام :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

---

(١٥) سورة الصافات – ٧٨ – ٨١ . (١٦) سورة القصص – ٨٣ .

ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [١٧] .

وقال : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ [١٨] .

وقال : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ [١٩] .

وقد وعد الله بالعلو والغلبة للمؤمنين ، إذا تحققت فيهم الصفات الايمانية ، وعملوا لرضا الله تعالى ، ولم يكن هدفهم العلو ، فان العلو نتيجة لا غاية ، ومنحة لا هدف فيقول : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [٢٠] .

وقد صرح القرآن فى أكثر من موضع ، أن المطلوب من الله والنافع عند الله ، هو القلب السليم ، فقال : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [٢١] .

---

(١٧) سورة النور – ٥٥ .

(١٨) سورة الأنفال – ٣٩ .

(١٩) سورة الحج – ٤١ .

(٢٠) سورة آل عمران – ١٣٩ .

(٢١) سورة الشعراء – ٨٨-٨٩ .

ويقول مادحاً لنبيه إبراهيم : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ (٢٢) .

فلنكن على حذر من كل ما يعارض صفة القلب السليم ، ويتحول إلى وثن من الأوثان ، أو حبالة من حبائل الشيطان ويكون سهيما فى حب الله تعالى ومشاركا له ، يقول القرآن : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ (٢٣) ويقول النبى ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » (٢٤) .

٣ — الأمر الثالث أن الأنبياء عليهم السلام قد اشتدت غيرتهم على ما جاءوا به من عقيدة ودعوة وشريعة ، فلا يرضون فى حال من الأحوال بإحداث تعديل فيها ، أو تغيير لها ، حتى لمصلحة من مصالح الدعوة ، وانتشارها أو انتصارها ، أو للتخفيف من حدة العداء وشدة المعارضة ، فلا مداهنة عندهم ولا مساومة ، ولا تنازل ولا عدول ، ولاإرجاء ولا تأجيل . والله يقول لرسوله آخر الرسل ﷺ : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن**

---

(٢٢) سورة الصافات — ٨٤ ، قال سعيد بن المسيب ، القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ (تفسير ابن كثير) وقال سفيان الثورى :هو الذى ليس فيه غير الله عز وجل ، (روح المعانى) .

(٢٣) الفرقان — ٤٣ .

(٢٤) رواه الشيخان وأبو داود والامام أحمد فى المسند .

المشركين ﴾ [٢٥] ، ويقول : **﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾** [٢٦] ، ويقول : **﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾** [٢٧] .

ولم يكن موقف الرسول ﷺ فيما يتصل بالتوحيد وما يعارضه ، وفى العقائد الأساسية وحتى فى أركان الاسلام ، موقفا سلمياً سياسياً مرناً ، كما عهد من الزعماء والقادة السياسيين الذين يسمون أنفسهم « واقعيين » و« عمليين » .

وقد قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ – بعد فتح الطائف – وقد أسلموا وسألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ ، وما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم رسول الله ﷺ ، حتى سألوا شهراً واحداً بعد قدومهم ، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان ابن حرب والمغيرة بن شعبة – وهو من قومهم – يهدمانها ، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال : « لا خير فى دين لا صلاة فيه » .

ولما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فهدمها المغيرة ، وانتشر الاسلام فى ثقيف ، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم [٢٨] .

---

(٢٥) سورة الحجر – ٩٤ . (٢٦) سورة المائدة – ٦٧ .
(٢٧) سورة القلم – ٩ .
(٢٨) زاد المعاد ج / ١ ص / ٤٥٨ – ٤٥٩ ملخصاً .

ويلتزم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى تبليغ رسالتهم وفى الحوار مع الأمم التى يبعثون إليها التعابير النبوية التى تتفق مع روح دعوتهم وطبيعة رسالتهم ، ولا يكون فيها إيهام ولا غموض ، فيدعون إلى الآخرة دعوة سافرة ، ويطمعون فى الجنة ونعيمها ، ويحذرون من جهنم وعذابها وجحيمها ، كأنهما رأى عين ، ويطالبون بالايمان بالغيب ، ولا تخلو عصورهم من فلسفات مادية وإن كانت بسيطة وبدائية ، ومن مصطلحات تستخدمها فئات من الناس ، إنهم لا يجهلونها ، ولا يجهلون أنها عملة سائدة لها رواج وذيوع ، وفيها بريق وجاذبية ، ولكنهم لا يستخدمونها لجلب الناس إليهم ، فيدعون إلى الايمان بالله وبصفاته وأفعاله . وبالملائكة ، والقدر خيره وشره من الله ، والبعث بعد الموت ، ويقولون - فى غير استحياء ومعذرة - إن جزاء كل ذلك الجنة ، ورضوان من الله .

وخير نموذج لهذا المنهج النبوى فى الدعوة ، ما يراه القارىء فى قصة بيعة العقبة الثانية ، فقد خرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم من أهل الشرك واجتمعوا فى الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون (٧٣) رجلا وامرأتان من النساء ، وجاء رسول الله ﷺ معه عمه عباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، وتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الاسلام ، ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فبايعوه واستوثقوا منه ألا يدعهم ويرجع إلى قومه ، وعرفوا وهم عقلاء ، ما يستتبع ذلك من خطر وضرر ، وإثارة لغيظ القبائل

وعداء العرب كلهم ، ونبههم على ذلك عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فقالوا فى جواب ذلك كله ، إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ .

ولو كان أحد مقام نبى الله ﷺ من القادة والزعماء ، ورجال التنظيم الانسانى ، والوعى السياسى ، لكن جوابه أنه يجتمع شملكم بعد فرقة ويكون لكم كيان بعد ضعف ، فتستطيعون أن تقيموا دولة وتنشئوا قوة ، ولم يكن ذلك أمراً غريباً تأباه عقولهم ،وقد دلت كل القرائن على إمكان ذلك ووقوعه وقد قال قائلهم : « إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم ، فندعوا إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك »[٢٩] .

ولكن الرسول ﷺ لم يزد فى جواب سؤالهم : « فما لنا بذلك يا رسول الله ؟ » على قوله : « الجنة » هنالك قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه »[٣٠] .

ومن آثار هذه الغيرة أنهم لا يغيرون حكماً من أحكام الشريعة ولا يعطلون العمل به لمصلحة سياسية ، ولكثرة من يدخل فى دينهم ويكثر السواد ، أو يكسب له القوة والمجد ، وقد نفذوا حدود الله

---

(٢٩) سيرة ابن هشام ق /١ ، ص/ ٤٢٩ .
(٣٠) ابن هشام ق /١ ، ص/ ٤٢٩ .

وأحكامه فى الأباعد والأقارب ، ولم يعطلوها لشفاعة أحب الناس إليهم ، وقد قال رسول الله ﷺ حين شفع أسامة فى امرأة من بنى مخزوم ، وقد سرقت : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب ، فقال : « أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[٣١] .

وقد انتقلت هذه الغيرة إلى خلفاء الرسول وأصحابهم ، فحافظوا على تعاليم القرآن وأحكام الشريعة ، ومبادىء الاسلام ، غير محتفلين بما يجر ذلك من إقبال أو إدبار ، أو ربح أو خسارة .

وخير مثال لذلك ما روى فى التاريخ عن موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قضية جبلة بن الأيهم الغسانى ، وكان من ملوك آل جفنة ، وقد خرج إلى المدينة فى خمسمائة من أهل بيته من عك وغسان ، ودخل المدينة فلم يبق بها بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زيه ، وخرج عمر للحج ، فخرج معه جبلة ، فبينا هو يطوف بالبيت ، وكان مشهوداً بالموسم ، وطىء إزاره رجل من بنى فزارة فانحل ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى ، فاستعدى عليه عمر رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال : ما هذا ؟ ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمد حل إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال له

---

(٣١) صحيح مسلم كتاب الحدود باب حد السرقة ونصابها .

عمر : قد أقررت فإما أن ترضى الرجل ، وإما أن أقيده منك ، قال جبلة : وماذا تصنع بى ؟ قال : آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال : وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ، وهو سوقة وأنا ملك ؟ قال : إن الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية ، قال جبلة : قد ظننت يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الاسلام أعز منى فى الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا فانك إن لم ترض الرجل أقدته منك .

ولما رأى جبلة الصدق من عمر ، قال:أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه ، وأذن له عمر فى الانصراف ، حتى إذا نام الناس وهدءوا، تحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة وهى منهم بلاقع ، ولم يزد عمر حين سمع قصة ما هو فيه من نعيم وتظاهر ملوكية من جثامة بن مساحق الكنانى الذى وفد عليه وجلس معه ، على أن قال : « أبعده الله ، تعجل فانية اشتراها بباقية فما ربحت تجارته »(٣٢)

وليس معنى ذلك أن الأنبياء غلاظ شداد لا يستخدمون الحكمة فى دعوتهم ولا يكلمون الناس على قدر عقولهم ، فإن ذلك ينافى النصوص القرآنية ، والسيرة النبوية المحفوظة ، وليس قوله تعالى : .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم ﴾ (٣٣)

---

(٣٢) فتوح البلدان للبلاذرى ، ص / ١٤٢ ، باختصار وتاريخ ابن خلدون حـ / ٢ ، ص/ ٢٨١ .

(٣٣) سورة إبراهيم آية ٣ .

محصوراً فى كلمات ومفردات ، إنما يشمل المعانى والأساليب ومدخل الكلام ، كما تجلى ذلك فى موعظة سيدنا يوسف مع زميليه فى السجن ، وحوار سيدنا إبراهيم وموسى مع ملوك عصرهما وقومهما[٣٤] وقد أمر الله نبيه - وعن طريقه وبواسطته كل قارىء للقرآن وكل داع إلى الاسلام - بقوله : .

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[٣٥]

وقد كان النبى ﷺ يوصى أصحابه الذين يرسلهم للدعوة إلى الله وتبيلغ أحكام الله باللين والرفق ، والتيسير والتبشير ، وقد قال لمعاذ ابن جبل وأبى موسى لما بعثهما إلى اليمن « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا »[٣٦] . وقد قال الله لنبيه ﷺ :

﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[٣٧]

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين »[٣٨] والنصوص فى ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى[٣٩]

---

(٣٤) راجع للتفصيل كتابنا روائع من أدب الدعوة فى القرآن والسيرة النبوية » طبع المجمع الاسلامى العلمى لكنهئو ، (الهند) وطبع دار القلم الكويتية .

(٣٥) النحل - ١٢٥ .

(٣٦) صحيح البخارى ، ج / ٢ ص / ٦٢٢ .

(٣٧) آل عمران - ١٥٩ .

(٣٨) صحيح البخارى ، ج / ١ ، ص / ٣٥ .

(٣٩) اقرأ الفصل النفيس « باب التيسير » فى « حجة الله البالغة » لشيخ الاسلام ولى الله ابن عبد الرحيم الدهلوى ، ج / ١ .

وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض فى سيرة الأنبياء السابقين ، للحكمة التى وصفهم الله بها ، فقد قال : ﴿ **وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ [٤٠] ، وقال فى أنبيائه : ﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة** ﴾ [٤١] .

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ،ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس ، إنما هو فى التعليم والتربية وفى المسائل الجزئية ، ومما ليس من العقائد ومبادىء الدين فى شيء ، أما ما كان من العقائد والمبادىء والفرائض والنصوص وما يفرق بين الايمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، وكان من شعائر الاسلام وحدود الله ، فالانبياء عليهم السلام على اختلاف عصورهم ، أصلب فيه من الحديد ، وأثبت عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هوادة ، ولا يرضون مساومة [٤٢] .

٤ — السمة الرابعة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها ، هوالتشديد على جانب الآخرة واللهج بها ، والاشادة بذكرها ، والتنويه بشأنها تنويها يجعلها من النقاط الأساسية فى دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش فى أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوق

(٤٠) سورة ص — ٢٠ .

(٤١) الأنعام — ٨٩ .

(٤٢) ملتقط من كتاب المؤلف «النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن» ص / ٥١ .

كلامهم أن الآخرة دائماً نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها ، وسعادتها وشقائها ، فهم إلى الجنة فى حنين شديد ، ومن جهنم فى فزع كبير ، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم .

والايمان بالآخرة وتمثل ما فيها من سعادة دائمة وشقاء دائم ، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء . وللكفار العصاة من عقاب ، هو الحافز الحقيقى إلى دعوتهم وبذل نصحهم ، وهو الذى يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار [٤٣] .

والقارىء الذكى يلاحظ أن دعوة الأنبياء إلى الايمان بالآخرة ليست كضرورة خلقية ، وكحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ، ومدنية صالحة ، فضلا عن المجتمع الاسلامى ، وهذا وإن كان يستحق التقدير والاعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما ، أن الأول – منهج الأنبياء – إيمان ووجدان . وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الانسان مشاعره وتفكيره ، وتصرفاته ، والثانى اعتراف وتقدير ، وقانون مرسوم،وإن الأنبياء يتكلمون عن « الآخرة » باندفاع والتذاذ ، ويدعون إليها بحماسة وقوة ، ورجال التربية والاصلاح وقادة الجماعات العقلاء يتكلمون عنها بقدر الضرورة

(٤٣) النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن ، ص / ٦٤ – ٦٥

الخلقية ، أو الحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الاصلاح والتنظيم الخلقى وشتان ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية [٤٤] .

٥ – إن الله هو الحاكم الحقيقى ، والحكم المطلق وشرع الدين من حقه ، وقد قال : ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ [٤٥] وقال : ﴿ **أم هم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله** ﴾ [٤٦] ولكن صلة العبد وربه أشمل وأوسع ، وأعمق وأدق بكثير من صلة الحاكم والمحكوم ، والآمر والمأمور ، والسلطان والرعية ، وقد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته فى بسط وتفصيل ، وأسلوب شيق جميل [٤٧] لا يدلان أبداً على أن المطلوب من العبد هو الايمان بمجرد حاكميته المطلقة ، والاذعان بسلطته العلياء ، وأن لا يشرك آخرين معه فى سلطته ، إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الإلهية – التى زخر القرآن بذكرها ، وما ورد من الآيات التى فيها مدح الحب لله [٤٨] والحث على ذكره

---

(٤٤) الصراع بين الايمان والمادية ، ص / ٨٩ – ٩٠ .

(٤٥) سورة الانعام – ٥٧ ، سورة يوسف – ٤٠ و ٦٧ .

(٤٦) سورة الشورى – ٢١ .

(٤٧) اقرأ على سبيل المثال الآيات الأخيرة من سورة الحشر : ﴿ هو الله الذى لاإله إلا هو﴾ إلى قوله : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ (٢٢ – ٢٤) .

(٤٨) كقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ البقرة – ١٦٥ وقوله : ﴿ ويحبهم ويحبونه ﴾ (المائدة – ٥٤) وقوله فى قصة =

الكثير الدائم – تتطلب فى صراحة أن يحب العبد إلهه وربه بقلبه وقالبه ، وأن يتفانى فى طلب رضاه ، وأن يتغنى بمجده ويسبح بحمده ، وأن يلهج بذكره قياماً وقعوداً ، وأن يكون ذلك هو شغله الشاغل وهمه الكبير ، وأن يظل خائفاً منه ، فزعاً من بطشه وقهره ، وجلا من غضبه وسطوته ،ملتجئاً إليه فى كل حال ، ماداً إليه يد السؤال ، متضرعاً إليه بالحاح وإقبال ، متطلعاً إلى جماله الذى هو مصدر الحسن والاحسان ، ومنتهى الفضل والكمال ، تملكه عاطفة البذل فى سبيله بكل ما عنده ، من نفس ونفيس ، وغال ورخيص[٤٩] .

٦ – مما تجب الاشارة إليه والتنويه به – ونحن فى حديث عن طبيعة هذا الدين وسماته البارزة – أن شأن الأنبياء والرسل – وفى مقدمتهم وعلى رأسهم أفضل الرسل وخاتم الأنبياء محمدﷺ – مع الأمم التى يبعثون إليها ، ومع الخليقة ، ليس شأن

= يحيى : ﴿ وحناناً من لدنا وزكاة ﴾ (مريم – ١٣) وما ورد فى قصة إبراهيم وأمره بذبح إسمّاعيل ، وما ورد من الآيات التى يصعب إحصاؤها فى الحث على ذكر الله ، وذم المقصرين فيه كقوله : ﴿ يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ (آل عمران – ١٩١) ، وقوله : ﴿ ولايذكرون الله إلا قليلا ﴾ (النساء – ١٤٢) .

(٤٩) مقتبس من كتاب المؤلف « التفسير السياسى للاسلام » ص / ٧٨ – ٧٩ ، طبع دار القلم الكويت ، الطبعة الثالثة .

البرد[٥٠] ، وحملة الرسائل ، وبالتعبير العصرى« سعاة البريد » الذين يبلغون الرسائل أو الرسالات ، ثم لا شأن لمن تبلغهم هذه الرسائل أو الرسالات ، بالذين كانوا واسطة أو أداة فى بلوغ هذه الرسائل أو الرسالات إليهم ، وهم أحرار يفعلون ما يشاؤون ، وصلة الأمم المبعوثة إليهم مع من بعثوا ، صلة مؤقتة قانونية آلية ، لا شأن لها بسيرتهم وبأذواقهم واتجاهاتهم وحياتهم الفردية والمنزلية ، وهذا تصور خاطىء وناقص قد راج فى بعض الأوساط التى جهلت مقام النبوة والأنبياء ، وفى عصرنا فى بعض الأوساط التى ظهرت فيها فكرة إنكار الحديث وحجيته ، أوسيطر عليها التفكير الغربى ، تقليداً للتصور المسيحى الدينى .

بالعكس من ذلك فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم القدوة للانسانية والمثل الكامل فى الأخلاق والأذواق ، والأخذ والرد ، والحب والرضا ، من الله تعالى،أحاطت العناية الالهية والقبول الرحمانى بنفوسهم،والحياة التى كانوا يعيشونها،وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسننهم وطرق معيشتهم ، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة وأخلاقهم من بين أخلاق الناس ، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التى تعودها الناس ، حتى إذا سلكوا شعباً وواديا وسلك الناس شعباً وواديا ، كان شعبهم وواديهم أحب إلى الله من شعب الناس وواديهم ، ونفذت فيهم وفى كل ما اختاروه ، وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله ورضاه ، حتى أصبح تقليدهم واتباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم

(٥٠) جمع بريد .

والتخلق بأخلاقهم والتشبه بهم ، أقرب الأسباب وأقرب الطرق وأيسرها لجلب محبة الله،وصار من اتبعهم وتشبه بهم ، من المحبوبين ، فضلا عن أن يكون من المحبين ، لأن المتشبه بالحبيب حبيب ، وبالبغيض بغيض ، وأصبح ذلك أصلا من الأصول ، والقانون الذى لايتبدل ولا يتغير على مر الزمان ، واختلاف المكان ، وأصبحت الدعوة إليه عامة وعلانية ، وأعلن الله تعالى علي لسان خاتم النبيين ﷺ :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾(٥١)

وبالعكس من ذلك كان الميل إلى الظالمين والكفار وإيثار طريقتهم والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله والبعد عنه ، فقال :
﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ (٥٢)

وهذا سر ما تسميه الشريعةُ بخصال الفطرة وسنن الهدى ، تشيد بها وتحث على الأخذ بها ، ومجموع هذه الأخلاق والعادات يحدث انصباغاً بصبغتهم ، وهى الصبغة التى يقول الله عنها **﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾**(٥٣)

---

(٥١) سورة آل عمران – ٣١ .

(٥٢) سورة هود – ١١٣ .

(٥٣) سورة البقرة – ١٣٨ .

وهذا سر تفضيل الله عادة على عادة . وخلقا على خلق ، ووضعاً على وضع ، وهيئة على هيئة ، وهذا سر ما تتخذه الشريعة الاسلامية شعاراً لأهل الايمان ولأهل الطاعة وسنة موافقة للفطرة ، وضده علامة للانحراف شعاراً لأهل الجهل والسفاهة ، ولأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما ، إلا أن الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم ، وفيه تشبه بهم ، والثاني شعار لأهل الكفر وعادة من عادات الجاهلية ، ومن أوضاع الشيطان وأتباعه وتشبه بهم .

ويندرج تحت هذا الأصل كثير من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة ، والنوم والعشرة ، والاختلاط وهو باب واسع من أبواب السنة وفقه الدين [٥٤] .

أما فيما يتصل بالنبي ﷺ ، فالحاجة إلى العناية بهذه الناحية أشد وأقوى ، فلا بد من تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبي ﷺ والحب العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح [٥٥] والايمان به كـ« خاتم الرسل، وإمام الكل ، ومنير السبل » والحذر من كل العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحب وإضعافه على الأقل ، وتحدث جفافاً في الشعور ،

---

(٥٤) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، ص / ٩٤ – ٩٧ .

(٥٥) جاء في الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (متفق عليه) وفي حديث : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » (رواه أحمد بن حنبل عن عبد الله بن هشام) .

وضعفاً فى العمل بالسنة ، وتجرؤا فى القول ، وانصرافا عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته وحديثه ، وكل ما يحرك هذا الحب ويغذيه (٥٦) ويدل التأمل فى سورة الأحزاب ، وسورة الحجرات ، وسورة الفتح ، وغيرها ، على أن المطلوب من المسلم فى حق الرسول ﷺ أكثر مما يجوز أن يسمى بالصلة القانونية ، وهى الطاعة الحرفية فقط ، بل المطلوب الأدب النابع من القلب ، والحب المتغلغل فى الأحشاء ، وما يعبر عنه القرآن بالتعزير والتوقير ﴿ **وتعزروه وتوقروه** ﴾ (٥٧) وهو الذى مثله الصحابه رضى الله عنهم فى حياتهم وسيرتهم .

وقد تجلى ذلك فى قصة خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فى وقعة رجيع ، وقد قال أبو سفيان بن حرب لزيد بن الدثنة حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ ، قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً (٥٨) ، وتترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله

---

(٥٦) « القرن الخامس عشر الهجرى الجديد فى ضوء التاريخ والواقع » ص / ٧٤ (للمؤلف) .

(٥٧) الفتح - ٩ .

(٥٨) سيرة ابن هشام ، ق / ٢ ، ص / ١٧٢ .

ﷺ يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه ، حتى كثر فيه النبل [٥٩] .

وتترس طلحة بن عبيد الله على رسول الله ﷺ فى غزوة أحد بيده يقى النبى ﷺ فأصيبت أنامله وشلت يده [٦٠] وقد أصيب فى غزوة أحد زوج امرأة من بنى دينار وأخوها . وأبوها ، فلما نعوا لها ، قالت : « فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، وهو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، قال سعد بن أبى وقاص ، فأشير لها إليه فلما رأته قالت :كل مصيبة بعدك جلل [٦١] .

ولما رأى عروة بن مسعود الثقفى رسول قريش شأن الصحابة مع رسول الله ﷺ وتسابقهم فى حبه وطاعته ، وكان إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له ، قال لأصحابه حين رجع ، أى قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشى والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، فوصف لهم ما رآه [٦٢] وكتب

---

(٥٩) أيضاً ص / ٨٢ ، و رواه البخارى فى غزوة أحد فى باب قوله تعالى : ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ .

(٦٠) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ، ج / ٢ ، ص / ٢٢٩ .

(٦١) أى صغيرة ، سيرة ابن هشام ، ق / ٢ ص / ٩٩ .

(٦٢) زاد المعاد ، ج / ١ ص / ٣٨٢ .

الحديث والسيرة مشحونة بمثل هذه الأمثلة والنماذج .

وامتاز بهذا الحب وكان له فيه النصيب الأوفر كل من تشبع بروح هذا الدين وأراد الله أن ينفع به الاسلام والمسلمين ، من العلماء الراسخين ، والمصلحين والمجددين ، والقادة المصلحين ، وهذا الحب - الخاضع لأحكام الشريعة وآدابها والمتأسى بأسوة الصحابة - يعين على الاتباع الكامل ، والاستقامة على الشريعة ، ومحاسبة النفس الدقيقة الأمينة ، والطاعة فى المنشط والمكره ، ويزيل الأمراض النفسية ويزكى النفس ويهذب الاخلاق . فان موجة الحب تجرف بالحشيش وتسرى فى النفس سريان النار فى الهشيم ، وقد أصبح المسلمون بعد ما كانوا مع الحب لله ولرسوله - شعلة من الحياة ، وجذوة من النار ، ركاماً بشرياً ، أو فحماً حجرياً ، بعد عهده بالنار والحرارة .

٧ - ومن خصائص هذا الدين كماله وخلوده ، فقد أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد والشرائع ، وما تتوقف عليه سعادتهم فى الدنيا ، ونجاتهم فى الآخرة ، فقال الله تعالى : « **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً** » (٦٣) .

وقد صرح القرآن بلسان عربى مبين ، أن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال والوفاء بحاجات البشر ، والصلاحية للبقاء

---

(٦٣) سورة الاحزاب - ٤٠ .

والاستمرار ، فقال :﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾ [٦٤] وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة فى حجة الوداع سنة عشر للهجرة ، وفهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، وتاريخ الديانات ، أنها كرامة خص بها المسلمون ومفخرة لهذا الدين لايشاركه فيها دين آخر ، فقالوا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « يا أمير المؤمنين إنكم تقرءون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً » [٦٥] .

وقد كان انقطاع النبوة بعد رسول الله ﷺ تكريماً للانسانية ورأفة بها ، وإعلاناً أن الانسانية قد بلغت سن الرشد ومرحلة النضج والاستواء ، وقد خرجت من إطارها الضيق الذى عاشت فيه أحقاباً واستعدت لأن تدخل فى مرحلة جديدة من العلم والمدنية ، والتعارف ، والوحدة ، وتسخير الكون وطاقاته ، والتغلب على العوائق الطبيعية ، والتقسيمات الجغرافية ، والفوارق السياسية ،

---

(٦٤) سورة المائدة – ٣ .

(٦٥) وقد قال عمر فى جواب ذلك ، إنى لأعلم حيث أنزلت ، وأين أنزلت ، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت ، يوم عرفة (صحيح البخارى ، كتاب التفسير) يعنى أن ذلك لايحتاج إلى عيد جديد ، فقد كان ذلك عيداً ، والاسلام ليس دين أعياد ومواسم للحوادث ، والوقائع الكبيرة ، يحتفل بها ، شأن الديانات الأخرى .

وجاء دور الاعتماد فى مجال الحياة على القوى الطبيعية ووسائل العلم – مع الاعتماد فى العقائد والشرائع على رسالة الله الأخيرة والشريعة الخالدة – والعقل المؤمن ، والقلب السليم ، وكان شقاء الأمم فى الزمن الماضى بالتباس الأمور ، واختلاط الحق بالباطل ، وكثرة الدعوات المدعية للاتصال الخاص بالسماء وتلقى التعاليم من فوق كذباً وزوراً ، وتوزيع الناس بين المؤمن والكافر على هذا الأساس ، وقد تكاثر هؤلاء المتنبئون فى البيئات اليهودية والمسيحية ، حتى أحدث ذلك مشكلة شغلت العقول واستنفدت الطاقات ، ونشرت الفوضى ، والاضطراب النفسى والعقلى [٦٦] وقد كان فى انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ توفير للجهود البشرية ، والطاقات الانسانية ، عن أن تمتحن وتستنفد بعد كل فترة زمنية ، أو على مسافة مكانية فى التصديق والتكذيب ، وتوجيه بالانسان إلى أن ينظر إلى الأرض والكون ، فى استخدام مواهبه وطاقاته ، لا إلى السماء بين آونة وأخرى ، لينزل للانسانية وحى جديد ، وعلم مفيد مزيد ، فيتفادى بذلك من بلبلة فكرية ، وصراع مذهبى وتمزق اجتماعى .

وقد استطاعت هذه الأمة – بفضل هذه العقيدة – أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، وتحافظ على وحدتها فى الدين والعقيدة ،

---

(٦٦) راجع دائرة المعارف فى الأديان والأخلاق (Encyclopnedia of Religion & Ethics) ج / ٨ ، ص / ٥٥٨ ، ومقال (Edwin Knox Michell) فى هذه الموسوعة .

ولا يزال لها مركز روحى موحد ومصدر علمى وثقافى عالمى ، وشخصية مجمع عليها ، ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً فيجتمع لها الشمل وتتوحد لها الكلمة ، ويقوى عندها الشعور بالمسئولية ، وقوة مقاومة الفساد ، وإقامة الحق والعدل وموازين القسط ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى الدين الخالص ، ولا تنتظر لذلك نبياً جديداً يبعث ، أو إماماً معصوماً ينهض ، فيحقق ما عجز الأنبياء عن تحقيقه ، ويكمل ما تركوه ناقصاً [٦٧] ولا تعتمد فى الانتفاضة الاسلامية ، وفى النشأة الدينية الجديدة ، على شيء غامض يجل عن العقول والظواهر ، ويدق فهمه ، ويستغله المغرضون والطامحون من أصحاب النيات السيئة ، والأغراض السياسية ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون [٦٨] .

٨ — ومن خصائص هذا الدين بقاؤه على أصالته وحيويته ، محفوظاً كتابه مفهوماً ، مصونة أمته من الضلال العام والجهالة المطبقة والانحراف الاجتماعى الذى ابتلت به الأمة المسيحية فى عهدها الباكر ، فسماهم القرآن الكتاب السماوى المعجز بـ « الضالين » [٦٩] فقد قال الله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له

---

(٦٧) كما يعتقد كثير من الامامية .

(٦٨) ملخصاً من كتاب المؤلف « النبى الخاتم » .

(٦٩) لا يفهم سر هذه الكلمة وحكمة هذه التسمية — المختلفة عن اليهود =

لحافظون ﴾ (٧٠) والوعد بالحفظ فى موضع الامتنان ، يستوجب الفهم والشرح ، والعمل والتطبيق ، فلا خير فى كتاب يبقى مطوياً على غرته ، وتنقطع الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة ، وتمضى على ذلك قرون وأجيال ، لا تتبين الأمة فيها حقيقة الكلمات التى يدور عليها هذا الكتاب ، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته ، وقد قال لرسوله : ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه** ﴾ (٧١) ولا ثقة بدين لم يعمل به إلا فى فترات قصيرة تتخللها فجوات واسعة عميقة ، كان يسود عليها الظلام ، وتتغلب فيها الجاهلية بكل معانيها ، فالشجرة التى تبقى أطول زمان وأفضله

= الذين سماهم القرآن بـ « المغضوب عليهم » – إلا من كان له اطلاع دقيق على تاريخ نشوء المسيحية وتطورها فى أول عهدها ، فقد انحرفت عن الجادة التى تركها عليها المسيح – عليه السلام – فى أول رحلتها ، وسارت على درب مختلف عن الدرب الأول كل الاختلاف ، وتكفى لذلك شهادة واحدة وهى شهادة العالم المسيحى (Ernest de Bunsen) فيقول : « إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الانجيل ، ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إن مرد النزاع القائم بين المسيحيين اليوم ، وبين اليهود والمسلمين ، ليس إلى المسيح ، بل إلى دهاء بولس ، ذلك المارق اليهودى والمسيحى ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل » . (Islam or True Christianity, P. 128) .

(٧٠) سورة الحجر – ٩ .

(٧١) سورة القيامة – ١٧ – ١٩ .

ولا تعطى ثمارها ، غير جديرة بالاعتماد وبالاعتناء ، وليست الشجرة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

ولم تصب هذه الأمة حاملة الرسالة الأخيرة التى أخرجت للناس ، والتى يرتبط بها مصير الانسانية ، بالعقم والجدب الفكرى الدائم ، ولا تعيش فى عمى وضلال عن مقاصده ومتطلباته ، ولا تجتمع على ضلالة ، وقد جاء فى حديث صحيح : « لا تجتمع أمتى على ضلالة »[(٧٢)] وكل فساد وانحراف يغزو هذه الأمة إنما هو طارىء ودخيل . ومناف لطبيعتها وهو كالغبار على جوهر أصيل ، وذهب وهاج ، لا يلبث أن ينتفض ويتطاير بتأثير القرآن والسنة والدعوة إلى الدين الخالص ، وحركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ما جاء معناه فى حديث آخر : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » والدراسة الواسعة الدقيقة لتاريخ الأمة ورجالها يشهد بذلك[(٧٣)] .

٩ – وأخيراً إن الاسلام يحتاج إلى مناخ إسلامى

---

(٧٢) يقول العلامة السخاوى « هو حديث مشهور المتن ذو اسانيد كثيرة ، وشواهده متعددة » (المقاصد الحسنة فصل اللام والألف) .

(٧٣) راجع مقدمة كتاب « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » الجزء الأول بعنوان « الحاجة إلى الاصلاح والتجديد ، والبعث الجديد ، واتصالهما فى تاريخ الاسلام » .

– وبتعبير أدق وأكثر وضوحاً – إلى طقس ودرجة حرارة وبرودة معينة (TEMPERATURE) لأنه دين حى إنسانى ، ليس ديناً عقلياً يعيش فى المخ ، أو فى فلسفة أو مكتبة ، بالعكس إن الاسلام فى وقت واحد ، عقيدة وعمل ، وسلوك وخلق وعاطفة وشعور وذوق يسيطر على التفكير والشعور ، ويتحكم فى موازين الأشياء والقيم ، إنه يسبك الانسان سبكا جديداً ، ويصوغ الحياة صياغة جديدة ، لذلك نرى أن الله تبارك وتعالى يسمى الاسلام بصبغة الله ، والصبغة لون شامل وسمة مميزة ، وطابع ممتاز ، وللاسلام حساسية زائدة بالنسبة إلى الديانات الأخرى ، إنه يتأثر أكثر من كل دين ، له حدود معروفة معينة ، لا يمكن أن يتخطاها المسلم ، ولا مفهوم للردة ولاشناعة لها ، فى دين آخر ، بالمعنى الواضح الذى نجده فى الشريعة الاسلامية ، والتصور الاسلامى .

ووقائع حياة النبى ﷺ وأحداثها ، وتوجيهاته وتعاليمه ، وأسوته وسنته ، – من مجال العقائد والعبادات ، إلى مجال الأخلاق والمعاملات ، إلى المشاعر والانفعالات – تخلق ذلك الجو الذى تخضر فيه شجرة الدين ، وتورق وتثمر ، لأن الدين لا يبقى مستجمعاً لجميع شرائط الحياة وصفاتها – منها النمو والتحرك ، والاهتزاز والاعتزاز والحساسية – بدون العواطف والروح ، والوقائع والأمثلة العملية ، ومجموعتها الحديث النبوى الصحيح ، والسنة المحفوظة ، وبقاء صورة العهد النبوى – بجانب القرآن الكريم – مسجلة ، وبقاء حديث صاحب النبوة ، وصورة جو

عهده محفوظة ، معجزة من معجزات الاسلام ، ومزية من مزاياه التي لا تشاركه فيها ديانة ، وذلك شيء طبيعي ، فان الدين الذي جاء ليبقى إلى يوم القيامة ، ويقدم للأجيال القادمة في أجواء متباينة وبيئات مختلفة ، نماذج عملية موحدة ، يوفر دواعي العمل ونوازعه القوية ، ويجسم خروج الحكم الشرعي من حيز التصور والامكان العقلي ، إلى حيز التطبيق العملي ، ويغذي العقل والقلب في وقت واحد ، لا يمكن أن يعيش بدون الجو ، وهذا الجو قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحديث .

وقد أكدت التجارب الطويلة المتصلة التي مر بها تاريخ الأديان والأقوام ، أن مجرد الأمر القانوني والضابطة الرسمية ليسا بكفيلين بأن يضفيا على عمل ونشاط ، مسحة من الروح والكيفيات المطلوبة ، ولا يستطيعان أن ينشئا المناخ الذي لا بد منه ، وكل القرائن تدل على أن الله تعالى كان يريد كجمع القرآن صيانة صحيفة حامله ، وبفضل ذلك بقي امتداد الحياة المباركة - على صاحبها الصلاة والسلام - على مدى الاجيال والقرون ، وظلت الأمة في كل دور من أدوارها تتنفس في ذلك المناخ الاسلامي الروحاني ، والعلمي والايماني ، الذي سعد به الصحابة رضي الله عنهم مباشرة ، تعرف بذلك الفرق بين المعروف والمنكر والسنة والبدعة ، والأصيل والدخيل ، وتحمل ميزان الحرارة (THERMAMETER) أو مقياس الضغط الجوي (BAROMETER) الذي يعرف به علماء هذه الأمة مدى ابتعاد المجتمع الاسلامي المعاصر ، أو الجيل الإسلامي الجديد ،

عن الحياة الاسلامية المثالية – عقيدة وسلوكاً – ويتعرفون بالموجات الأجنبية عن الاسلام وتعاليمه التى تغزو هذا المجتمع ، وتحدث فيه انعكاسات وتموجات بعيدة عن الاسلام ومثله وقيمه ، وأهدافه وغاياته ، فيقيمون عليه الحسبة الدينية ويكافحون هذا الانحراف عن الخط الاسلامى المستقيم ، ويعيدون الأمر إلى نصابه ، والمياه إلى مجاريها ، لذلك نرى أن جميع حركات الاصلاح والتجديد ، وصيحات العودة إلى الاسلام ، والتعاليم الاسلامية ، وأسوة الرسول ﷺ نبعت على مدار التاريخ الاسلامى الطويل ، من دراسة كتب السنة والحديث ، وفهمها العميق ، وكان القائمون بها فى مختلف الأعصار والأمصار ، عاكفين على دراسة الكتاب والسنة ، ومشتغلين بالحديث تدريساً وتأليفاً ، ودعوة ونشراً ، وكلما ضعفت الصلة بالحديث النبوى أو عم الجهل له ، خفتت أصوات الاصلاح والتجديد والانكار على شعائر الجاهلية وتقاليدها والرد على البدع ، وظل الأمر كذلك إلى يومنا هذا ، فلا يستغنى عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين إلى الدين الخالص والاسلام الكامل ، والأسوة النبوية ، وعهد السعادة والنور (٧٤) .

هذه طبيعية هذا الدين الخاصة به ، وسماته البارزة ، وملامحه

---

(٧٤) راجع للتفصيل والأمثلة والدلائل من التاريخ ، رسالة المؤلف « دور الحديث فى تكوين المناخ الاسلامى وصيانته » (طبع المجمع الاسلامى العلمى فى ندوة العلماء لكهنؤ الهند) .

المميزة له عن غيره ، التى تتكون منها شخصيته التى يجب علينا أن نتعرف بها ونغار عليها لنقدر هذه النعمة قدرها ، ونأمن من الالتباس ، وقياس هذا الدين على غيره من الديانات والفلسفات البشرية ، والنظم والمناهج الوضعية ، ونكون على بينة من الأمر ، وشعور بعظم المسئولية ودقة الأمانة .

العَقيدَة الاسْلاميّة السّنيّة

مصادر تلقى العقيدة الصحيحة ، والعمدة فيها :

إن أجل علم أخذ عن الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، معرفة الله تعالى وعلم ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك علم يختص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ هو علم ليست له وسائل وآلات ، ومعلومات أولية وتجارب عند البشر ، ولا يتناوله القياس ولا يفيد فيه الذكاء والفطنة ، لفقدان أسس القياس ، وتعالى الله تعالى عن الأشباه والنظائر ، وسموه وتقدسه وتنزهه عن التشبه والتمثل ، ولبعده عن كل ما عرفه البشر وألفه وجربه فى عالم الحس والمادة ، لأنه ليس حلبة تجرى فيها جياد العقول وتتسابق فيها عتاق العلم والتجربة .

وكان أجل علم تتوقف عليه سعادة البشر ، إذ هو الأساس للعقائد والأعمال والأخلاق والمدنية ، هو الذى يعرف به الانسان نفسه ، ويفك لغزة الكون ويكشف عن سر الحياة وبه يعين الانسان

مركزه فى هذا العالم ، وينظم علاقاته واتصالاته بين جنسه ، ويضع منهاج حياته ويحدد غاياته ، فى ثقة وبصيرة ، ووضوح ويقين .

لذلك عظم الاعتناء به فى كل أمة وجيل ، وفى كل عصر وطبقة وحرص عليه وأولع به كل جاد مخلص ، ناصح لنفسه ، مشفق على حياته ومصيره ، لأن جهله أو تجاهله - يؤدى إلى الشقاء الذى ليس بعده شقاء ، ووقوع فى الهاوية التى ليس لها قرار .

وكان الناس فى ذلك فريقين : فريق اعتمد فى ذلك على الأنبياء والرسل وعلومهم صلى الله عليهم ، الذين أكرمهم الله بالنبوة وخصهم بمعرفته وتكليمه ورسالاته ، وجعلهم واسطة بين الحق والخلق ، فى معرفة ذاته وصفاته وطرق مرضاته ، وأفردهم باليقين الذى ليس فوقه يقين ونور ليس بعده نور ، فقال : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين** ﴾ [1] وقال قائلهم وقد نازعه قوم فى ذات الله وصفاته فى غير علم يملكونه أو نور يحملونه :﴿ **أتحاجونى فى الله وقد هدان** ﴾ [2] ثم أضافوا إلى ذلك التأمل فى الكون والتفكر فى خلق السماوات والأرض ، والنظر فى آيات الله ، وتدبر كتابه الحكيم ، والعمل الصالح والتقوى ، وتزكية النفس وتهذيب الخلق ، وتصفية القلب على منهاج الأنبياء

---

(١) سورة الأنعام - ٧٥ .
(٢) سورة الأنعام - ٨٠ .

عليهم السلام ، واستعمال عقولهم ومواهبهم والنظر فى العلوم الكونية والعقلية - بحرية واستقلال فكر - فرأوا أن بعضها يصدق بعضاً ، فازدادوا يقيناً إلى يقين ﴿ **ومازادهم إلا إيماناً وتسليماً** ﴾ [٣]

وفريق اعتمد فى ذلك على ذكائه وعلمه وتجاربه ومواهبه ، وأطلق عنان العقل وأركض جواد القياس ، وتناول ذات الله وصفاته بالدراسة والبحث والتحليل والتجزية كمادة كيمياوية أو قوة طبيعية أو طاقة نباتية ، وقالوا : هو كذا وليس كذا ، وكان قولهم ليس كذا أكثر من قولهم هو كذا ، والنفى دائماً - إذا فقد اليقين وعدم النور - أسهل من الإثبات والتقرير ، وجاءت نتائج بحثهم وتقريرهم ، أكثرها سلوب ، والمدنية لا تقوم على السلوب ، وليس ذلك شأن الأنبياء الذين يشاهدون ويسمعون ويردون عن علم وتجربة شخصية ، فجاءت فلسفتهم الإلهية - كما سموها - آراء متضاربة ، وتخمينات ماأنزل الله بها من سلطان ، ولم يقم عليها دليل أو برهان ، ولم تؤيدها تجربة أو وجدان .

وكان فى مقدمة هذا الفريق وعلى رأسه ، اليونان الذين عرفوا من قديم الزمان بالذكاء المفرط ، والقريحة الوقادة ، والفلسفة العميقة ، والشعر البليغ والفن الرفيع ، ولم يكن هذا - علم الالهيات -مجال شيء من ذلك ولا يتصل به بنسب قريب أو بعيد فجاهدوا فى غير جهاد ومشوا بين شوك وقتاد ، « فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض » [٤] ليس معهم نور

---

(٣) سورة الأحزاب - ٢٢ .

(٤) سورة النور - ٤٠

يهديهم ، أو دليل يرشدهم ، أو تجربة سابقة تأخذ بيدهم ، أو مقدمات ومعلومات أولية يتوصلون بها إلى المجهول .

وكان ضغثا على إبالة ، أنهم كانوا أصحاب وثنية عتيقة ، عميقة عريقة ، وأصحاب أساطير وخرافات ، تغلغلت فى فلسفتهم وشعورهم ، وأدبهم ودياناتهم ، لهم فسلفة وثنية خاصة عن الأفلاك والعقول ، توارثوها جيلا بعد جيل ، فجاءت فلسفتهم الإلهية مزيجاً من الفلسفة والوثنية ، جامعة بين العلم والديانة – الديانة التى آمنوا بها وقلدوها – ووضعوا لآرائهم وتحكماتهم أسماء هائلة مرعبة ، وكسوها لباس الفلسفة والفن القشيب المزخرف ..

وقد قلدهم عامة النظار والباحثين من الأمم – غير الهند التى عرفت بفلسفاتها والوثنية الخاصة – وخضعوا لها تقليداً وإيماناً بالغيب ، ولبراعتهم فى الحساب والهندسة ، وبعض العلوم الطبيعية ، وهذا داء البشر القديم ، إذا خضعوا لأحد فى شيء خضعوا له فى جميع الأشياء كما قرره حجة الاسلام الغزالى فى مقدمة « تهافت الفلاسفة » والعلامة ابن خلدون فى مقدمته العظيمة ، وأخذوا بحوثهم وآراءهم كنتائج مقررة ثابتة ، وحقائق علمية ، لا يتطرق إليها الشك ولا ينازعها إلا جاهل أو متعصب .

ولايستغرب ذلك عن الأمم التى أفلست فى ثروتها الدينية من القديم وضيعت الهدى والنور ، ولكنه غريب من علماء المسلمين الذين أكرمهم الله بالرسالة المحمدية – على صاحبها الصلاة والسلام – والكتاب الذى ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من**

خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴾ [٥] فخضع كثير منهم لهذه الفلسفة وبدأوا يبحثون فيها كعلم قائم على المسلمات والحقائق والتجارب ، وسلموا كثيرا من متخيلاتهم ومفروضاتهم ، وأخضع كثير منهم – حباً للاسلام تارة وضعفاً منهم أخرى – الآيات القرآنية أو أولوها تأويلا شديداً وفسروها تفسيراً يطابق ما ثبت وتقرر فى الفلسفة اليونانية الإلهية .

وكان أكثر ما دهوا به وأوتوا من قبله هو « اللوازم الفاسدة » التى يجب أن ينزه عنها « واجب الوجود » ففروا من إثبات كثير من الأسماء والصفات والأفعال ، لأنها يلزم منها ما يختص بالحدث ويثبت ما به الجسم وما يتنزه عنه « القديم » كل ذلك قياساً على الانسان وعلى تجاربهم المحدودة إذ لا يتصور ولم يجرب وجود هذه الصفات إلا بهذه اللوازم ، وفاتهم أنها صفات إلهية يمكن وجودها بغير هذه اللوازم ، وهكذا مال فريق منهم إلى نفى الصفات ، وكان أحسنهم حالا من تأولها أو فسرها تفسيراً كاد يؤدى إلى التعطيل ، وفاتت أو كادت تفوت حكمة الصفات .

ومشى الكثير على هذا الدرب على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم وتكون علم الكلام وتضخم ، وكان المسلمون فى حاجة إلى من يؤسس عقيدته وتفكيره على ما ثبت من الكتاب والسنة وآمن به السلف ،

---

(٥) سورة فصلت – ٤٢ .

ويجعله الأساس ، وينظر فى الفلسفة وغير الفلسفة كعلم يناقش ويبحث فيه ، وينكر بعضه ويؤخذ بعضه ، ويستعرضه استعراضاً علمياً حراً ، لاتقليد فيه ولااستسلام ، ولايأخذ من مفروضات الفلاسفة اليونانيين ومقلديهم ومستلزماتهم ، إلا ما قام عليه الدليل ورجح فى ميزان العلم ، ولا ينظر إلى أرسطاطاليس وأضرابه كآلهة أو أنبياء معصومين عن الخطأ ، وكان المسلمون فى حاجة إلى نوابغ مستقلين فى التفكير ، مجتهدين متمسكين ، ثائرين مؤمنين هدامين بنائين ، يجمعون بين العلم الواسع العميق للكتاب والسنة ، والنظر الدقيق والعلم الغزير للمناهج الكلامية والمذاهب الفلسفية ، ويواجهون الفلسفة وآراء الفلاسفة القدماء وجهاً لوجه ، يؤمنون بالقرآن كما أنزل ، ويؤمنون بالله كما وصف نفسه ، من غير تحريف ولاتأويل ، ويفسرون ذلك كله تفسيراً يقره العقل والمنطق ، ويؤيده العلم والبرهان .

وكان من هؤلاء الثائرين المؤمنين ، الثائرين على الفسلفة ومفروضاتها وتهويلاتها والمؤمنين بكتاب الله ، ووصف الله نفسه ظاهراً وباطناً علماء « ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[٦] ولم يخل منهم عصر ، وكان منهم ومن أشهرهم شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية الحرانى الدمشقى فى القرن الثامن ، فقد جمع – كما شهد به أعلام هذه الأمة ونطق به كتبه – بين الايمان القوى

---

(٦) رواه البيهقى ، ولفظ الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

بكل ما جاء به الرسول ونطق به الكتاب ، والاقتناع بعقيدة السلف الصالح ، والاطلاع الواسع ، الذى لايرام فوقه ، على مادون فى صحائف هذه الأمة فى الماضى،والعلم الدقيق العميق بفلسفة اليونان ومنطقهم ، والمذاهب التى نشأت فى الإسلام بتأثير الفسلفة اليونانية فى قليل أو كثير ، والنقد القوى الحر الجرئ لمناهجها وبحوثها وقد رزق تليمذاً وخليفة مشى على أثره ، وشرح ما أبهمه ، وجمع ما نشره وأكمل ما بدأه ، وهو العلامة ابن قيم الجوزية (م ٧٩١) .

وكان من خير من يلحق بهما ويذكر معهما شيخ الاسلام حكيم الأمة الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى (م ١١٧٦ هـ) صاحب « حجة الله البالغة » فقد جمع بين العقيدة السنية السلفية ، والفهم الدقيق للقرآن والخبرة الواسعة بالحديث والعلم بأسرار الشريعة ، وبين الدراسة العميقة الواسعة للفلسفة اليونانية وعلوم الحكمة والتصوف ، علما وعملا ، ووصل إلى درجة الاجتهاد [٧] وهو الذى نشر علم الحديث وروج بضاعته فى الهند ، ودافع عن الامام ابن تيمية والمحدثين ، وألف الكتب البديعة فى مقاصد الاسلام والشريعة ، منقطعة النظير فى مكتبة الاسلام العامرة الواسعة [٨] .

---

(٧) قال الأمير صديق حسن خان صاحب المؤلفات الكثيرة السائرة : « لو كان فى العصر الأول لعد من المجتهدين الكبار » .

(٨) اقرأ ترجمته الضافية فى الجزء السادس فى « نزهه الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى طبع دائرة المعارف فى حيدر آباد الهند .

وكان هؤلاء – ومن كان على شاكلتهم – أجدر الناس بشرح العقيدة الاسلامية وعرضها إذ كانوا وسطاً بين الجامدين القشوريين ، والجاحدين المؤولين الذين يصرفون الكلم عن مواضعه ، يجمعون بين المعقول والمنقول والشريعة والحكمة ، مطلعين على المناهج الكلامية متمسكين بالكتاب والسنة وعقيدة السلف ، وكانت كتبهم ومؤلفاتهم أجدر بالتدريس والاعتناء والشرح والايضاح ، من كثير من الكتب التى يعنى بها فى مدارسنا وجامعاتنا .

وكان كتابه « **العقيدة الحسنة** » متناً وجيزاً محكماً يجمع بين الدقة والسهولة ، وقد اشتملت على اللب واللباب ، والمهم من العقيدة وعلم التوحيد الذى لا يسع المتعلم جهله ، فلذلك اعتمدنا عليه مع التلخيص فى عرض العقيدة الاسلامية السنية ، مع استعانة قليلة ، وزيادة يسيرة من كتب السلف المعتمدة كعقيدة الطحاوى ، وكتب فى شرح العقائد ، لكبار علماء السنة .

العقائد الاسلامية الأساسية :

إن للعالم صانعاً قديماً لم يزل ولا يزال ، واجباً وجوده ، ممتنعاً عدمه ، وهو الكبير المتعال ، متصفاً بجميع صفات الكمال ، منزهاً من جميع سمات النقص والزوال ، وهو خالق لجميع المخلوقات ، عالم لجميع المعلومات ، قادر على جميع الممكنات ، مريد لجميع الكائنات ، حى سميع ، بصير لا شبه له ، ولاضد ، ولا ند له ، ولامثل ولاظهير له ، لاشريك له

فى وجوب الوجود ، ولا فى استحقاق العبادة ، ولا فى الخلق والتدبير ، لا يستحق العبادة (أى أقصى غاية التعظيم) إلا هو ، ولا يشفى مريضاً ولا يرزق رزقاً ، ولا يكشف ضراً إلا هو ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، لا يحل فى غيره ، ولا يتحد بغيره ، ليس فى ذاته ولا فى صفاته حدوث [٩] ، ليس بجوهر [١٠] ولاعرض [١١] ولا جسم ، ولا فى حيز ، وهو فوق العرش ، مرئى للمؤمنين يوم القيامة ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، غنى لا يحتاج إلى شيء ولا حاكم عليه ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، لا يجب عليه شيء بإيجاب غيره ، موصوف بالحكمة ، لا قبيح منه ، ولا حاكم سواه .

والقدر خيره وشره من الله ، قد شمل علمه الأزلى الذاتى كل ما وجد أو سيوجد من الحوادث ، وهو الذى يوجب الحوادث قبل وجودها [١٢] .

ولله تعالى ملائكة علويون ، مقربون ، وملائكة هم موكلون

---

(٩) إنما الحدوث فى تعلق الصفات بمتعلقاتها .

(١٠) هو القائم بنفسه ، أو الشاغل للحيز .

(١١) العرض ما يحتاج إلى المحل المقوم له .

(١٢) صح من حديث رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه » (رواه الترمذى) .

على كتابة الأعمال وحفظ العبد عن المهالك ، والدعوة إلى الخير ، ويلمون بالعبد لمة الخير ، ومن خلق الله تعالى الشياطين ، لهم لمة شر بابن آدم ، ومن خلقه الجن .

والقرآن كلام الله ، ولا يجوز الإلحاد فى أسماء الله وصفاته ، وهو أن يوصف بما لا يصح وصفه به ، أو أن يُتأول أوصافه على ما لا يليق به ، فيتوقف الاطلاق على الشرع .

والمعاد الجسمانى حق ثابت ، والمجازاة والمحاسبة حق ، والصراط ثابت بالكتاب والسنة ، والميزان حق ، والجنة حق ، والنار حق ، وهما مخلوقتان اليوم ، والأرواح مخلوقة لا تفنى ، وهى غير قديمة .

ولا يخلد المسلم صاحب الكبيرة فى النار ، والشفاعة حق لمن أذن له الرحمن ، وشفاعة رسول الله ﷺ لأهل الكبائر من أمته حق ، وهو مشفع ، وعذاب القبر للفاسق ، وتنعيمه للمؤمن حق ، وسؤال المنكر والنكير حق .

وبعثة الرسل إلى الخلق حق ، وتكليف الله عباده بالأمر والنهى على ألسنة الرسل حق ، وهم متميزون بأمور لا توجد فى غيرهم ، على سبيل الاجتماع ، تدل على كونهم أنبياء ، منها خرق العوائد لهم وهى المعجزات ، ومنها سلامة فطرتهم ، وكمال أخلاقهم ، وغير ذلك ، والأنبياء معصومون من الكفر ، وتعمد الكبائر ، والاصرار عليها .

ومحمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، لا نبى بعده ، ودعوته عامة لجميع الانس والجن ، وهو أفضل الأنبياء بهذه الخاصة ، وبخواص أخرى نحو هذه ، وقد أسرى به فى اليقظة إلى بيت المقدس ومنه إلى ما شاء الله .

وكرامات الأولياء ، وهم المؤمنون العارفون بالله تعالى وصفاته المحسنون فى إيمانهم ، حق ، يكرم الله بها من يشاء ، ويختص برحمته من يشاء ، ولا يسقط التكليف عن أحد مهما بلغ من الولاية والمجاهدة والجهاد ، ولا يزال مكلفاً بالفرائض ، ولا يحل له شيء من المحرمات ، والمعاصى ، ما دام صحيح الحواس واعياً ، والنبوة أفضل من الولاية إطلاقاً ، ولا يبلغ أحد من الأولياء وإن كان أعظمهم ، درجة صحابى ، وإن لم يكن من كبار الصحابة رضى الله عنهم ، وفضل الصحابة على الأولياء بكثرة الثواب وعظم القبول لا بكثرة العمل [١٣]

والصحابة – رضوان الله عليهم – خيار المؤمنين وخير الخلائق بعد الأنبياء – عليهم السلام – ونشهد بالجنة والخير للعشرة المبشرة ، ونوقر أهل البيت وأزواج الرسول أمهات المؤمنين ، نحبهم ونعترف بعظم محلهم فى الاسلام ، وكذلك أهل بدر ، وأهل بيعة

---

(١٣) فى الحديث الصحيح : « لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (متفق عليه) .

الرضوان ، وأهل السنة يرون عدالة الصحابة ولا يعتقدون عصمتهم ، ويمسكون عما شجر بينهم .

وأبو بكر الصديق رضى الله عنه إمام حق بعد رسول الله ﷺ . ثم عمر رضى الله عنه . ثم عثمان رضى الله عنه ، ثم على رضى الله عنه ، ثم تمت الخلافة على منهاج النبوة ، وبعدها ملك عضوض ، وأبو بكر وعمر أفضل أمة محمد ﷺ (١٤) ونكف ألسنتنا عن ذكر الصحابة إلا بخير ، وهم أئمتنا وقادتنا فى الدين ، وسبهم حرام ، وتعظيمهم واجب .

ولا نكفر أحداً من أهل القبلة (١٥) إلا بما فيه نفى الصانع القادر المختار ، أو عبادة غير الله ، أو إنكار المعاد والنبى ، وسائر ضروريات الدين ، واستحلال المعصية كفر (إذا صح ثبوتها

---

(١٤) يقول الشيخ فى شرح هذا المعنى إننا لانعنى الأفضلية من جميع الوجوه حتى تعم النسب والشجاعة والقوة والعلم وأمثالها ، بل هى بمعنى عظم نفعهما فى الاسلام .

(١٥) أهل القبلة فى اصطلاح المتكلمين من يصدق بضروريات الدين أى الأمور التى علم ثبوتها فى الشرع واشتهر ، فمن أنكر شيئاً من الضروريات كحدوث العالم ، وحشر الأجساد وعلم الله سبحانه بالجزئيات وفرضية الصلاة ، والصوم ، لم يكن من أهل القبلة ، ولو كان مجاهداً فى الطاعات ، وكذلك من باشر شيئاً من إمارات التكذيب ، كسجود للصنم ، والإهانة لأمر شرعى ، واستهزاء به ، فليس من أهل القبلة .

معصية) والاستهزاء بالشريعة والاستهانة بها كفر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب بشرط أن لا يؤدى إلى الفتنة ، وأن يظن قبوله [١٦] .

ونؤمن بجميع الرسل والأنبياء ، والكتب المنزلة عليهم ، لا نفرق بين أحد من رسله ، والإيمان هو الإقرار باللسان ، والتصديق بالجنان ، ونؤمن بعذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، وأفعال العباد هى خلق الله ، وكسب من العباد ، ونؤمن بأشراط الساعة ، كما جاءت فى الحديث ، ونرى الجمعة [١٧] حقاً وثواباً . والفرقة زيغاً وعذاباً .

حقيقة التوحيد والدين الخالص ، وحقيقة الشرك :

وقوام العبودية تصحيح العقيدة والإيمان ، ومن تطرق إلى عقيدته خلل وتعرض إيمانه لفساد ، لم تقبل منه عبادة ، ولم يصح له عمل ، ومن صحت عقيدته واستقام إيمانه ، كان القليل من عمله

---

(١٦) تلخيصاً من العقيدة الحسنة لشيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى ، مع زيادات يسيرة مقتبسة من كتب العقائد وعلم التوحيد لغيره من كبار علماء السنة .

(١٧) أى الاجتماع .

كثيراً ، وهنا وجب على كل إنسان أن لا يدخر وسعاً فى تصحيح إيمانه ، وأن يكون الحصول عليه والاستيثاق منه غاية عمله ، ونهاية سؤله ، ولا يعدل به شيئاً ولا يتأخر فيه دقيقة [١٨] .

لقد تبين من دراسة القرآن المخلصة العميقة ، أن الكفار الذين كانوا فى عصر النبى ﷺ لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله ، ويرونهم مع الله بمنزلة سواء ، بل كانوا يقرون بأنهم مخلوقون وعبيد ، ولم يكونوا يعتقدون أبداً ، أن آلهتهم لا يقلون عن الله قدرة وقوة ، وهم ، والله ، فى كفة واحدة ، فما كان كفرهم وشركهم ، إلا نداؤهم لآلهتهم ، والنذور التى كانوا ينذرون لها والقرابين التى كانوا يقربونها بأسمائهم ، واتخاذهم له شفعاء ، ووكلاء ، فمن عامل أحداً بما عامل به الكفار آلهتهم وإن كان يقر بأنه مخلوق وعبد ، كان هو وأبو جهل فى الشرك بمنزلة سواء .

يقول شيخ الاسلام الشيخ ولى الله الدهلوى : .

« واعلم أن للتوحيد أربع مراتب ، أحدها حصر وجوب الوجود فيه تعالى ، فلا يكون غيره واجباً ، والثانية حصر خلق العرش والسماوات والأرض ، وسائر الجواهر فيه تعالى [١٩] . وهاتان

---

(١٨) رسالة التوحيد للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، تعريب المؤلف – ص / ٢٠ .

(١٩) وهو ما يعبر عنه بتوحيد الربوبية .

المرتبتان لم تبحث الكتب الالهية عنهما ، ولم يخالف فيهما مشركو العرب ، ولا اليهود ولا النصارى ، بل القرآن العظيم ناص [٢٠] ، على أنهما من المقدمات المسلمة عندهم ، والثالثة حصر تدبير السموات والأرض وما بينهما فيه تعالى ، والرابعة أنه لا يستحق غيره العبادة [٢١] ، وهما متشابكتان متلازمتان لربط طبيعى بينهما .... وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن العظيم ، ورد على الكافرين شبهتهم رداً مشبعاً [٢٢] .

فظهر أن الشرك لا يتوقف على أن يعدل الإنسان أحداً بالله ويساوى بينهما ، فلا فرق ، بل إن حقيقة الشرك أن يأتى الانسان بخلال وأعمال ، خصها الله بذاته العلية ، وجعلها شعاراً للعبودية ، لأحد من الناس ، كالسجود لأحد والذبح باسمه ، والنذر له ، والاستغاثة به فى الشدة ، واعتقاد أنه حاضر ناظر فى كل مكان ، وإثبات قدرة التصرف له ، وكل ذلك يثبت به الشرك ، ويصبح الانسان به مشركاً ، وإن كان يعتقد أن هذا الانسان ، أو الملك ، أو الجنى الذى يسجد له ، أو يذبح أو ينذر له ، أو يستغيث به ، أقل من الله شأناً ، وأصغر منه مكاناً ، وأن الله هو الخالق ، وهذا عبده

---

(٢٠) قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ (الزخرف - ٩) .

(٢١) وهو ما يعبر عنه بتوحيد الإلوهية .

(٢٢) حجة الله البالغة ج / ١ ، ص / ٥٩ - ٦٠ باختصار .

وخلقه ، لافرق فى ذلك بين الأنبياء ، والجن والشياطين ، والعفاريت ، والجنيات ، فمن عاملها هذه المعاملة كان مشركاً ، لذلك وصف الله اليهود والنصارى ، الذين غلوا فى أحبارهم ورهبانهم ، مثل ما غلا المشركون فى آلهتهم ، بما وصف به عباد الأوثان والمشركين ، وغضب على هؤلاء الغلاة المنحرفين ، كما غضب على غلاة المشركين ، فقال : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ [٢٣] .

مظاهر الشرك وأعماله والعادات الجاهلية :

ولا بد بعد هذا الكلام الأصولى العام ، من أن نشير إلى مواضع الداء والبلاء فى الجهال ، ومن خضع للمؤثرات الأجنبية ، والعادات الجاهلية ، ونشأ فى بيئات بعيدة عن التعليم الاسلامى الصحيح ، والعلم بالكتاب والسنة ، والدعوة إلى الدين الخالص ، ونضع الأصبع على مواضع الداء ، والوتر الحساس فى الجسم السقيم .

إن العلم المحيط الشامل والتصرف المطلق بالارادة والقدرة

---

(٢٣) سورة التوبة – ٣١ .

الكاملة ، من خصائص الله تعالى وأعمال العبادة وشعائرها ، كالسجود والركوع ، والصوم وقصد البيت من أنحاء بعيدة ، والمعاملة به كالمعاملة بالبيت الحرام ، وسوق الهدى إليه ، ونذر النذور هناك ، من أعمال الشرك ومظاهره .

وعلامات التعظيم الدال على العبودية والاستكانة خاصة بالله تعالى ، وعلم الغيب خاص بالله تعالى ووراء طور البشر ، والعلم بمكنونات الضمائر وهواجس الخواطر ليس بميسور دائماً لأحد ولا يقاس الله سبحانه وتعالى على ملوك الدنيا فى قبول الشفاعات ، وإرضاء أهل الوجاهة والنفوذ ، والله يرجع إليه فى صغير وكبير ، فانه ليس كملوك الدنيا فى تدبير المملكة ، والاستعانة بالحاشية ، والسجود بجميع أنواعه لا يجوز إلا لله تعالى ، والمناسك ، ومظاهر التعظيم الأقصى ، وشعائر الحب والتفانى خاصة بالبيت والحرم ، وتخصيص الحيوانات للصالحين ، والتقرب باحترامها ونذرها وذبحها إليهم ، حرام ، وغاية التعظيم فى تذلل وخشوع من حق الله تعالى ، والذبح تقرباً وتعظيماً من حق الله تعالى ، واعتقاد التأثير فى الأنواء والكواكب فى العالم إشراك بالله ، والاعتماد على العرافة والكهانة والمخبرين بالمغيبات ، كفر وجبت ، وينبغى الحث على إظهار شعار التوحيد فى الأسماء ، والحذر من الكلام الموهم ، والحلف بغير الله ، إشراك بالله ، ولا يجوز النذر لغير الله ، والذبح فى مكان كان فيه وثن ، أو عيد من أعياد الجاهلية ، وينبغى العدول عن الإفراط والتفريط فى

تعظيم النبى ﷺ وعن تعظيم صور الصالحين [٢٤] .

هدف النبوة الأساسى وأهم مقاصد البعثة . القضاء على الجاهلية الوثنية العالمية :

إن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم فى كل زمان وفى كل بيئة هو تصحيح العقيدة فى الله تعالى ، وتصحيح الصلة بين العبد وربه ، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده ، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده ، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة فى عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة فى عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله ، وجعلهم متصرفين فى بعض الأمور الخاصة ويقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق ، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً ، ويقلده تدبير تلك المملكة فى ما عدا الأمور العظام [٢٥] .

---

(٢٤) ملتقط من « رسالة التوحيد » للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، تعريب المؤلف .

(٢٥) التعبير منقول من حجة الله البالغة ، للامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى .

وكل من له صلة بالقرآن – وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة – يعرف اضطراراً وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية ، والإنكار عليها ، ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها ، كان هدف النبوة الأساسى ، ومقصد بعثة الأنبياء ، وأساس دعوتهم ، ومنتهى أعمالهم ، وغاية جهادهم ، وقطب الرحى فى حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ، ومنها يصدرون ، وإليها يرجعون ، ومنها يبدأون وإليها ينتهون ، والقرآن تارة يقول بالاجمال : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (٢٦) وتارة يقول بالتفصيل فيسمى نبياً نبياً ، ويذكر أن افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد .

إن هذه الوثنية والشرك بمعنى التأله لغير الله وغاية التذلل له ، والسجود والدعاء والاستغاثة والنذر والذبح له ، هى الجاهلية العالمية التى هى أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفهم وسقطتهم ، وهى باقية مع البشر فى جميع مراحل حياتهم وتطوراتها . وهى التى تثير غضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدمه الروحى والخلقى والمدنى ، وتهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات .

ولايزال هذا هو الركن الأساسى فى الدعوات الدينية وحركات الاصلاح إلى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخالدة ،

---

(٢٦) سورة الأنبياء – ٢٥ .

﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ [(٢٧)] وشعار جميع الدعاة إلى الله وجميع المصلحين المجاهدين .

لا يجوز التقليل من شأن الشرك الجلى وغض النظر عنه :

ولايجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلى المتقدم ذكره وأهميته ، وأن يوضع فى الهامش من منهاج دعوة أو جهاد ، أو يساوى بينه وبين معانى الطاعة والحكم السياسية ويحكم عليها حكماً واحداً ، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التى ولى عصرها وانقضى دورها ، فان هذه إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشك فى خلود القرآن وأنه هو الكتاب الأخير الدائم ، وشك فى أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى والذى كتب له من النجاح والتوفيق والانتاج والاثمار ما لم يكتب لأى منهاج من مناهج الاصلاح .

البدعة ومضارها وتناقضها مع الشريعة الكاملة الخالدة :

تعرف البدعة بأنها ادخال شيء فى الدين لم يدخله الله ورسوله

(٢٧) الزخرف – ٢٨ .

فيه ، ولَمَّ يأمرا به ، واعتقاد أنه جزء من الدين ، يعمل به احتساباً ، مع التزام آدابه ، وشروطه المزعومة كالتزام الحكم الشرعي ، والبدعة شريعة وضعية إزاء شريعة إلهية ، لها فقهها المستقل ، وفرائضها وواجباتها ، وسننها ومندوباتها ، التي تقف نداً للشريعة الإلهية حيناً ، وتفوقها أهمية وعظمة حينا آخر .

وتغض البدعة طرفها عن حقيقة ناصعة ، وهى أن الدين قد أكمل ، وأن الشريعة قد ختم عليها ، فما كان ينبغي أن يتقرر ، تقرر ، وما كان ليتعين فرضاً أو واجباً تعين فرضاً أو واجباً ، وأغلقت « دار الضرب » للدين ، فأى عملة جديدة تنسب إليه ، لاتكون إلا مزورة مزيفة ، وما أحسن ما قال الامام مالك – رحمه الله – : « من ابتدع فى الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً – ﷺ – خان الرسالة ، فان الله سبحانه يقول :﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً [(٢٨)] .

وإن من خصائص الشريعة المنزلة من الله – عز وجل أن تكون سمحة سهلة ، صالحة للعمل والتطبيق فى كل عصر ومصر ، لأن من شرع هذا الدين هو الذى خلق الناس ، فهو الذى يعرف ضروراتهم وحاجاتهم ، وطبائعهم وطاقاتهم ، ومواضع ضعفهم وعجزهم :

---

(٢٨) رواه ابن الماجشون عن مالك .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٢٩] .

ولأجل ذلك لوحظت مراعاة هذه الأمور كلها فى التشريع الالهى ، ولكن إذا اتخذ الانسان نفسه شارعاً فلا سبيل إلى مراعاة هذه الجوانب المتعددة ، وكلما تختلط البدع والمحدثات بالدين ، وتجرى تعديلات وإضافات بشرية فيه ، يزداد الدين عسراً وضيقاً وتعقداً، حتى يضطر الناس إلى أن يخلعوا ربقة الدين من رقابهم ويحرمون هذه النعمة المتحققة فى رفع الحرج : **﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾**[٣٠] ويمكن أن تلاحظ أمثلة ما نقول فى تلك الفهارس الطويلة للطقوس والعبادات ، والفرائض والسنن المحدثة ، التى عملت فيها البدع عملها بكل حرية وانطلاق .

ومن خصائص الدين والشريعة الاسلامية الانسجام التام . والوحدة العالمية ، فلا يتغيران ، ولا يتفرقان فى عصر وزمان ، فلو سافر مسلم من بقعة فى العالم الانسانى إلى بقعة أخرى ، لايلقى أى صعوبة وحرج فى العمل بالدين ، وتطبيق الشريعة ، ولايحتاج إلى منهج مخصص ، أو دليل محلى ، أما البدع فلا توافق فيها ولا انسجام ، فهى تصهر فى بوتقة محلية فى كل مكان ، وتضرب فى دار الضرب لمدينة ما من المدن أو بلد من البلدان ، وتكون نتاج

---

(٢٩) سورة الملك - ١٤ .

(٣٠) الحج - ٧٨ .

العوامل التاريخية المحلية الخاصة ، والمصالح الشخصية ، والأغراض الفردية الخاصة ، فتختص بدع كل بلد من البلدان ، بهذا البلد نفسه ، بل بدع كل ولاية ، وكل مدينة وخرافاتها ، بل بدع كل حى من الأحياء وكل بيت من البيوت ، وأباطيلها وخرافاتها تختص بها نفسها ، ينتج من كل ذلك دين متعارض يصطدم بعضه ببعض فى كل قرية وبلد ، وكل حى ومنزل .

لهذه المصالح الشاملة الخالدة التى نعلم بعضها ولا نحيط بها ، نهى الرسول – ﷺ – من اقتراب البدع ، وأمرهم باجتناب كل المحدثات فى الدين ، والحفاظ على السنة ، والتمسك بها ، يقول – عليه الصلاة والسلام – :

« من أحدث فى أمرنا هذا ، ما ليس منه فهو رد »[٣١] ، « إياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »[٣٢] .

وتنبأ بهذه النبوة الحكيمة : « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع بها مثلها من السنة »[٣٣]

---

(٣١) متفق عليه .

(٣٢) رواه أحمد وأبوا داود ، نقلا عن « مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة » .

(٣٣) رواه الامام أحمد فى المسند .

جهاد ورثة النبى ﷺ وحملة الشريعة ضد البدع والمحدثات :

وقد عارض الصحابة – رضى الله عنهم – وأئمة الدين ، وفقهاء المسلمين ، وجميع المجددين والمصلحين ، والعلماء الربانيين فى عصورهم ، محدثات زمانهم والبدع الناشئة فيه ، معارضة عنيفة قوية ، وبذلوا جهد طاقتهم فى الحيلولة دون رواج هذه البدع والمحدثات وتأثيرها فى المجتمعات الاسلامية والأوساط الدينية ، وقد صور القرآن الحكيم ما يوجد فى هذه البدع والمحدثات – فى كل عصر – من جاذبية مغناطيسية ، وما ترتبط بها من أغراض أبناء الدنيا ، والمحترفين بالدين ، ومصالح الفرق الدينية المغرضة الشخصية ، ومنافعها الذاتية ، فى أسلوبه المعجز الحكيم ، فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ﴾ (٣٤) .

ولقى هؤلاء الدعاة والمصلحون ، والمجددون فى سبيل ذلك من الأذى والاضطهاد ، ما لقوا ولكنهم لم يبالوا بما أوذوا به فى سبيل الله ، واعتقدوا أن عملهم هذا جهاد الساعة ، والمهمة الدينية المقدسة لصيانة الشريعة الغراء ، والدين الخالص من التحريف والتزوير ، وقد

---

(٣٤) سورة التوبة – ٣٤ .

لقب هؤلاء المعارضين للبدع والمحدثات والحاملين لراية السنة ، والشريعة المطهرة ، مخالفوهم من العامة ، أو الخاصة الذين لا يمتازون عن العامة ، بألقاب تشبه ألقاب الكفار من قريش للمسلمين كالصابئة والمارقة [٣٥] وأعداء الدين ، فلم يعيروها أى اهتمام ، وقضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم واللسان ، وإثبات الحق وإبطال الباطل ، على كثير من البدع ومحدثات الأمور ، التى لا نجد لها الآن ذكراً إلا فى بعض كتب التاريخ ، وما بقى منها لم يزل يكافحها العلماء الربانيون ، ولا يزالون يحاربونها ، ويقضون عليها ، وصدق الله العظيم : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا** ﴾ [٣٦] .

---

(٣٥) مثل « الوهابية » والجامدين والمحافظين والقشوريين ، والحرفيين ، وغيرها فى عصرنا هذا .

(٣٦) سورة الأحزاب – ٢٣

العبادات

مكانة العبادات فى الاسلام :

وتلى العقائد فى الأهمية تركيز النبوءات عليه – وفى مقدمتها وعلى رأسها النبوة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام – العبادات [1] . التى هى الغاية الأولى من خلق الإنسان ، فيقول الله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** ﴾ [2] . وقد شرعتها الشرائع السماوية ، ودعا إليها الأديان فى عصورها ، وجاءت بها الشريعة الاسلامية فى صورة أكمل ، وعنى وشغف بها

---

(١) للدين مفهوم واسع فى الاسلام ، بخلاف الديانات الأخرى ، فكل ما عمل ابتغاء وجه الله وضوانه وعن إيمان واحتساب كان ديناً ، ولو كان من أعمال دنيوية وحاجات بشرية ، وأمور معاشية ، ولكن للعبادات المشروعة وخاصة للأركان والفرائض – كالصلاة والزكاة ، والصيام ، والحج – مكانة رفيعة وأهمية بالغة ، والتقليل من شأنها وأهميتها ، وإطلاق القول فيها وفى جميع الأعمال التى يسأل بها العبد الأجر والثواب ، يفتح باب الإلحاد والتحريف .

(٢) سورة الذاريات – ٥٦ .

النبى ﷺ عناية وشغفا يفوقان الوصف ، وجاءت عشرات من الآيات القرآنية ومئات من الأحاديث النبوية ، ترغب فيها وتنوه بشأنها وتشيد بذكر فضائلها وتحرض على التنافس فيها ، وتثنى على المكثرين منها والمعنيين بها ، وتندد بالراغبين عنها أو المقصرين فيها [٣] .

ينص القرآن الكريم على أن الجهاد والحكومة وسيلة ، و « إقامة الصلاة » هى الغاية ، فيقول : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلوٰة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ [٤] . ونظرة على القرآن الكريم تدل دلالة صارخة على أن العلاقة مع الله والعبودية ، والعبادات المعينة (الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج) مطلوبة من العبد رأساً حيث يسأل عنها يوم القيامة ، ويستحق العقاب لو تركها ، أو أهمل فيها ، يقول القرآن الكريم وهو يصور الحوار مع الذين استحقوا النار : ﴿ **ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين** ﴾ [٥] .

---

(٣) راجع كتب السنة والحديث ، واقرأ الآيات فى ذلك فى سورة السجدة آية ١٦ ، وسورة الفرقان – ٦٤ ، وسورة آل عمران – ١٧ ، وسورة الأحزاب – ٣٥ ، ٤٢ وسورة الكهف – ٢٨ وسورة الأنعام – ٥٢ .

(٤) سورة الحج – ٤١ .

(٥) سورة المدثر – ٤٢ – ٤٧ .

ويقول : ﴿ **فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى** ﴾ (٦) .

فالعبادات وأركان الدين هى حجر الزاوية فى نظام الدين كله ، يؤاخذ عليها العبد ويحاسب يوم القيامة ، أما الأمور الأخرى فهى وسائل وفى درجة ثانوية فى الدين » (٧) .

ومن أقدم هذه العبادات وأهمها الصلاة المفروضة ، فإنها عماد الدين ، والفارق بين الكفار والمسلمين ، وقد جاء فى القرآن ﴿ **وأقيموا الصلواة ولا تكونوا من المشركين** ﴾ (٨) . وروى مسلم فى صحيحه عن جابر عن النبى ﷺ قال :« بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » وفى رواية الترمذى « بين الكفر والايمان ترك الصلاة » وهى شرط النجاة وحارسة الايمان ، وقد ذكرها الله تعالى من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى (٩) . وهى فريضة دائمة مطلقة على كل عبد وحر ، وغنى وفقير ، وصحيح ومريض ، ومقيم ومسافر ، لا تسقط عمن بلغ الحلم فى حال من الأحوال ، بخلاف الصيام والزكاة والحج ، الأركان الثلاثة التى وجبت بشروط وصفات ، وفى أوقات معينة محددة ، فقد أمر بالصلاة حتى فى ساحة

---

(٦) سورة القيامة – ٣١ – ٣٣ .

(٧) مقتبس من كتاب المؤلف « التفسير السياسى للاسلام » .

(٨) سورة الروم – ٣١ .

(٩) اقرأ سورة البقرة : ١ – ٣ وسورة الأعلى ١٤ – ١٥ .

الحرب ، وميدان القتال ، وشرعت صلاة الخوف [١٠] ، ولاتسقط هذه الفريضة عن نبى مرسل ، فضلا عن صالح أو عارف أو مجاهد ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ [١١] .

والصلاة للمؤمن العارف كالماء للسمك ، وهى معقل المسلم ومفزعه [١٢] ، وهى تتناقض إذا كانت حقيقية – مع عبادة غير الله وعبودية الانسان والحياة الجاهلية والأخلاق الرذيلة ، ﴿ **إن الصلواة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ [١٣] . وتتفاوت الصلوات ، التفاوت الكبير ، ويتفاضل أهلها التفاضل العظيم ، فليست الصلاة قالباً حديدياً ، وشيئاً جامداً محدوداً ، إنما هى ساحة واسعة يتدرج فيها المصلى من حال إلى حال ، ومن بدء إلى كمال ، ومن كمال إلى ما لايخطر على البال ، والقرآن والصلاة عوضان عما فات المسلمين وحرموه من صحبة الرسول ﷺ وتأثيرها ، فالقرآن يتدفق بالحياة والقوة لا تبلى جدته ولاتنقضى عجائبه ، والصلاة تزخر بالقوة والحيوية ، لها من الفضل والتأثير فى ربط الصلة بالله والوصول إليه ،

---

(١٠) سورة النساء – ١٠١ – ١٠٣ .
(١١) الحجر – ٩٩ ، أجمع العلماء والمفسرون الذين يعتد بهم على تفسيره بالموت ، ومسألة عدم سقوط التكليف – كما قدمنا فى باب العقائد – مسألة معروفة فى علم العقائد والكلام .
(١٢) اقرأ للتفصيل كتاب المؤلف الأركان الأربعة ص / ٢٩ – ٣٠ .
(١٣) العنكبوت ٤٥ .

وقطع منازل القرب والولاية ، ما ليس لشيء آخر فى الدين ، وبها وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة فى كل عصر وجيل ، إلى مكانة فى الايمان واليقين ، والعلم والمعرفة ، والربانية والروحانية ، والقرب والولاية ، لا يصل إليها ذكاء الأذكياء ، وقياس العقلاء والحكماء ، وكذلك الشأن فى كل عصر .

والصلاة ميراث النبوة بروحها وأحكامها ، ومتوارثة فى الأمة بظاهرها وباطنها .

وقد كانت الصلاة من أحب العبادات إلى رسول الله ﷺ ، إليها يسكن وبها يتسلى ، وقد روى عنه ﷺ أنه قال : « وجعل قرة عينى فى الصلاة »[١٤] ، وكان يقول لمؤذنه بلال : « يابلال أقم الصلاة أرحنا بها »[١٥] . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى »[١٦] .

وقد كانت صلاته ﷺ هى المثل الكامل للاحسان فقد سئل عن الاحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك »[١٧] . وهى المطلوبة من كل مسلم للاقتداء والتأسى ،

---

(١٤) رواه النسائى .
(١٥) رواه أبو داود « كتاب الأدب باب فى صلاة العتمة » ٤٥ .
(١٦) رواه أبو داود .
(١٧) حديث متفق عليه .

فقد قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » [١٨] .

لذلك نشرع فى وصفها وعرضها للقراء بقدر المستطاع [١٩] .

هدى رسول الله ﷺ فى الصلاة :

قد سن رسول الله ﷺ كتكميل فوائد الوضوء للطهارة والاستعداد للصلاة التى هى مناجاة مع الله ، السواك ، وحث عليه حثاً شديداً ، حتى قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » [٢٠] .

وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة ، قال : الله أكبر ، ولم يقل شيئاً قبلها ، وكان يرفع يديه معها ممدودة الأصابع ، مستقبلا بها القبلة ثم يضع اليمنى على ظهر اليسرى ، وكان يستفتح فى الصلوات المفروضة

---

(١٨) رواه البخارى ، ملخصاً من كتاب « الأركان الأربعة » ركن الصلاة .

(١٩) اعتمدنا فى ذلك على كتاب « زاد المعاد » للحافظ ابن قيم الجوزية مع التجنب من ذكر التفاصيل التى اختلف فيها مذاهب الفقهاء ، وعرف فيها الخلاف على أساس الأحاديث الواردة فى ذلك وترجيحها والاستنباط منها ، وذلك باب واسع لايحتمله هذا الكتاب .

(٢٠) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، واللفظ لمسلم .

بـ « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك »

أما فى النوافل وفى قيام الليل فقد أثرت عنه عدة استفتاحات ، كقوله ﷺ : « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، واللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد ، اللهم نقنى من الذنوب والخطايا ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » وكان يقول بعد ذلك : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم » ثم يقرأ الفاتحة ، وكانت قراءته مدا يقف عند كل آية ، ويمد بها صوته ، فاذا فرغ من قراءة الفاتحة ، قال آمين (٢١) . وكانت له سكتتان ، سكتة بين التكبير والقراءة ، وسكتة بعد الفاتحة أو قبل الركوع ، فاذا فرغ من الفاتحة أخذ فى سورة غيرها ، وكان يطيلها تارة ، ويخففها لعارض من سفر أو غيره ، ويتوسط فيها غالباً ، وكان يقرأ فى الفجر بنحو ستين آية إلى مائة آية ، وصلاها بسور مختلفة من طوال المفصل (٢٢) . وصلاها بـ « إذا زلزلت » أو بـ « المعوذتين » فى السفر وكان يصليها يوم الجمعة « بآلم تنزيل السجدة » وسورة « هل أتى على الانسان »

---

(٢١) اختلفت المذاهب فى الاسرار والجهر به على أساس الأحاديث الواردة فى ذلك وموضع التفصيل والترجيح شروح الحديث وكتب الاحكام الموسعة .

(٢٢) سور من الحجرات إلى سورة البروج .

كاملتين ، وكان يقرأ فى المجامع العظام كالأعياد والجمعة بسورة « ق » و« اقتربت » و« سبح » و« الغاشية » .

وأما الظهر فكان يطيل قراءتها أحياناً ، وأما العصر فعلى النصف من قراءة صلاة الظهر إذا طالت ، وبقدرها إذا قصرت ، وأما المغرب فأطالها مراراً ، وقصرها أحياناً ، وقرأ فيها بقصار المفصل [٢٣] ، وأماالعشاء الآخرة فكان يتوسط فيها ويحب التوسط ، وأنكر على معاذ بن جبل رضى الله عنه حين قرأ البقرة ، وقال : أفتان أنت يامعاذ ؟ .

وأما الجمعة فكان يقرأ فيها سورة الجمعة والمنافقون كاملتين ، وسورة سبح والغاشية ، وأما قراءة الأعياد فتارة كان يقرِأ سورة « ق » و « اقتربت » كاملتين وتارة سورة « سبح » و » الغاشية » وكان ﷺ لا يعين سورة فى الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها ، إلا فى الجمعة والعيدين ، وكان يطيل الركعة الأولى على الثانية من صلاة الصبح ومن كل صلاة ، وكان يطيل صلاة الصبح أكثر من سائر الصلوات ، لأن قرآن الفجر مشهود .

وكان إذا ركع وضع كفيه على ركبتيه كالقابض عليهما . ووتر يديه فنحاهما عن جنبيه ، وبسط ظهره ومده واعتدل ، ويقول « سبحان ربى العظيم » وكان ركوعه المعتاد مقدار عشر تسبيحات

---

(٢٣) بعد لم يكن إلى سورة الناس .

وسجوده كذلك ، وهديه الغالب ﷺ تعديل الصلاة وتناسبها ، ثم كان يرفع رأسه قائلا « سمع الله لمن حمده » (٢٤) وكان دائماً يقيم صلبه إذا رفع من الركوع ، وبين السجدتين ، وكان إذا استوى قائماً قال ، ربنا ولك الحمد ، وربما زاد على ذلك ثم كان يكبر ويخر ساجداً ، وكان يضع ركبتيه قبل يديه ، وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه ، وكان يسجد على جبهته وأنفه ، وكان إذا سجد مكن جبهته وأنفه على الأرض ونحا يديه عن جنبيه ، وجافى بهما حتى يرى بياضى إبطيه ، وكان يضع يديه حذو منكبيه وأذنيه ، وكان يعتدل فى سجوده ، ويستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة ، ويقول « سبحان ربى الأعلى » ويزيد على ذلك ، ويكثر الدعاء فى النافلة ، ثم يرفع رأسه مكبراً ، ويضع يديه على فخذيه ، ثم يقول : « اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى واهدنى وارزقنى » ثم كان ينهض على صدور قدميه وركبتيه معتمداً على فخذيه ، وكان إذا نهض افتتح القراءة ولم يسكت ، وفعل كما فعل فى الركعة الأولى ، فإذا جلس للتشهد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى وأشار بأصبعه السبابة ، وكان يتشهد فى هذه الجلسة ويعلم أصحابه أن يقولوا : « التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ،

---

(٢٤) اختلفت المذاهب الفقهية فى رفع اليدين عند الركوع ، وعند الرفع ، وموضع التفصيل والترجيح الكتب المطولة .

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » وكان يخفف هذا التشهد ، ولم يُنقل أنه ﷺ صلى عليه وعلى آله فى التشهد الأول ، ولا كان يستعيذ من عذاب القبر ومن عذاب النار وفتنة المحيا وفتنة الممات وفتنة المسيح الدجال .

ثم كان ينهض مكبراً على صدور قدميه وعلى ركبتيه ، معتمداً على فخذه كما تقدم ، ويصلى بقية صلاته هكذا حتى إذا كانت السجدة التى فيها التسليم جلس للتشهد (٢٥) ، وقال ما قاله فى التشهد الأول من التحيات لله والصلوات والطيبات الخ .. .

أما تشهده ﷺ فقد روى عن عبد الله بن الزبير أنه قال : إن تشهد النبى ﷺ بسم الله وبالله خير الأسماء ، التحيات الطيبات الصلوات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق شهيداً ونذيراً ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، اللهم اغفر لى واهدنى » (٢٦) .

وينبغى للمصلى أن يصلى على النبى ﷺ وعلى آله (٢٧) .

---

(٢٥) اختلف المحدثون والفقهاء فى هيئة الجلسة ، هل كانت افتراشاً أو توركاً ، وموضع التفصيل والترجيح شروح الحديث وكتب الفقه .

(٢٦) للبزار والكبير بلين .

(٢٧) روى الحاكم فى المستدرك بالاسناد القوى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أنه قال : « يتشهد الرجل ، ثم يصلى على النبى ، ثم يدعو

ويدعو : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم »[٢٨] . وقد علم أبا بكر رضى الله عنه أن يقول : « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » وثبت عنه غير ذلك ، ثم كان يسلم عن يمينه ويقول « السلام عليكم ورحمة الله » وعن يساره كذلك ، وكان ينصرف على جانبيه وعلى يمينه وعلى شماله ، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كنت أعرف انقضاء صلاة النبى ﷺ بالتكبير[٢٩] . وكان إذا سلم استغفر ثلاثاً ، وقال « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والاكرام » ولم يمكث مستقبل القبلة إلا مقدار ما يقول

لنفسه » (فتح البارى كتاب الدعوات ، باب الصلاة على النبى ﷺ) وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال :« ثم ليتخير أحدكم من الدعاء أعجبه إليه فيدعو به » .

(٢٨) وقد صح عن أبى هريرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما تعليم النبى ﷺ أصحابه هذا الدعاء وقد جاء فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر المسيح الدجال » (رواه مسلم) وعن ابن عباس رضى الله عنه « أن النبى ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم سورة من القرآن » (رواه مسلم) .

(٢٩) رواه البخارى ، باب الذكر بعد الصلاة .

ذلك ، ويسرع الانتقال إلى المأمومين ، وكان ينفتل عن يمينه وعن يساره ، وكان يقول فى دبر كل صلاة مكتوبة : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وكان يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله لا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » وندب أمته إلى أن يقولوا فى دبر كل صلاة « سبحان الله » ثلاثاً وثلاثين و « الحمد لله » كذلك ، و « الله أكبر » كذلك ، وتمام المائة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » وفى صفة أخرى التكبير أربعاًوثلاثين فتتم به المائة .

وكان ﷺ يحافظ على اثنتى عشرة ركعة فى الحضر دائماً ، أربع ركعات قبل الظهر [٣٠] ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الصبح ، وكان يصليها غالباً فى بيته ، ولم يكن يدعها فى الحضر أبداً ، وكان إذا عمل عملاً أثبته ، وأهم هذه السنن الراتبة ركعتان بعد طلوع الفجر ، قالت عائشة رضى الله عنها ، « ولم يكن النبى ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر » [٣١] ، وكان من

---

(٣٠) ورويت عنه ﷺ ركعتان قبل الظهر .   (٣١) للستة إلا مالكاً .

هديه ﷺ فعل عامة السنن والتطوع فى بيته ، وكان يحافظ على الوتر سفراً وحضراً ، وكذلك على سنة الفجر ، والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن ، وكان يضطجع بعد سنة الفجر على شقه الأيمن ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة »(٣٢) . وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها (يعنى عن الجماعة) إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف »(٣٣)

ولم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً ولاسفراً ، وكان إذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار اثنتى عشرة ركعة ، وكان قيامه ﷺ بالليل إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة ، وكان قيامة بالليل ووتره أنواعاً ، وكان يقنت فى الوتر ، وكان رسول الله ﷺ يسر بالقراءة فى صلاة الليل تارة ويجهر بها تارة ، ويطيل القيام تارة ، ويخففه تارة ، ويوتر آخر الليل وهو الأكثر ، وكان يصلى التطوع بالليل والنهار على راحلته فى السفر قبل أى جهة توجهت به ، فيركع ويسجد عليها إيماء .

---

(٣٢) متفق عليه .

(٣٣) رواه مسلم .. هذا عن الرجل المسلم ، أما المرأة المسلمة فصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد ، وقد روى ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها (رواه أبو داود) .

وكان من هديه ﷺ وهدى أصحابه سجود الشكر عند تجدد نعمة تسر ، أو اندفاع نقمة ، وكان إذا مر بسجدة فى القرآن كبر وسجد .

وكان من هديه ﷺ تعظيم يوم الجمعة وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره ، وسن فيه الاغتسال ، والتطييب ، والتبكير للصلاة ، وقراءة سورة الكهف فى يومها ولبس أحسن الثياب التى يقدر عليها ، وقد روى الامام أحمد فى مسنده من حديث أبى أيوب رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان له ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتى المسجد ، ثم يركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينهما » ، وفيه ساعة الاجابة ، ففى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسال الله شيئا إلا أعطاه إياه » ، واختلف العلماء فى تعيينها ، والأرجح أنها آخر ساعة بعد العصر ، وهو قول أحمد وجمهور الصحابة والتابعين ، وكان يقصر الخطبة ويطيل الصلاة ، ويكثر الذكر ، ويقصد الكلمات الجوامع ، وكان يعلم أصحابه فى خطبه قواعد الاسلام وشرائعه ، ويأمرهم وينهاهم فى خطبته إذا عرض له أمر أو نهى ، ولا يأخذ بيده سيفاً ولاغيره ، وإنما كان يعتمد على قوس وعصا ، قبل أن يتخذ المنبر ، وكان يقوم فيخطب ثم يجلس جلسة خفيفة ، ثم يقوم فيخطب

الثانية ، فاذا فرغ منها أخذ بلال فى الاقامة .

وكان ﷺ يصلى العيدين فى المصلى ولم يصل العيد بمسجده إلا مرة واحدة أصابه مطر ، وكان يلبس للخروج إليهما أجمل ثيابه ، وكان يأكل قبل خروجه فى عيد الفطر تمرات يأكلهن وتراً ، وأما فى عيد الأضحى فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى ، فيأكل من أضحيته ، وكان يغتسل للعيدين ، وكان إذا انتهى إلى المصلى أخذ فى الصلاة من غير أذان ولا إقامة ، ولم يكن هو ولا أصحابه يصلون إذا انتهوا إلى المصلى شيئاً ، قبل الصلاة ولا بعدها ، وكان يبدأ بالصلاة قبل الخطبة فيصلى ركعتين ، ويزيد فى التكبيرات (٣٤) ، وكان إذا أكمل الصلاة انصرف فقام مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم ، فيعظهم ويوصيهم ، ويأمرهم وينهاهم ، وإن كان يريد أن يقطع بعثا قطعه أو يأمر بشيء أمر به ، ويأتى النساء فيعظهن ويذكرهن ، وكان أكثر من يتصدق النساء ، ويكثر التكبير فى خطبتى العيدين ، وكان يخالف الطريق يوم العيد فيذهب فى طريق ويرجع فى أخرى .

وقد صلى رسول الله ﷺ صلاة الكسوف (٣٥) . وخطب بالناس خطبة بليغة ، وقد صلى صلاة الكسوف مرة واحدة يوم مات

---

(٣٤) اختلفت المذاهب فى عدد التكبيرات المزيدة ، وموضع التحقيق والترجيح الكتب المطولة .

(٣٥) ليرجع فى صفة هذه الصلاة وأحكامها إلى كتب الحديث والفقه .

ابنه إبراهيم فنفى ما شاع فى الناس ، وقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا » [(٣٦)] .

وثبت عنه ﷺ أنه استسقى على وجوه [(٣٧)] ، وكان هديه ﷺ فى الجنائز أكمل الهدى مخالفاً لهدى سائر الأمم ، فكان من هديه إقامة العبودية للرب تبارك وتعالى ، والاحسان إلى الميت وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله ، ووقوفه ووقوف المسلمين صفوفاً يحمدون الله ويستغفرون له [(٣٨)] ، ومقصود الصلاة على الجنازة هو الدعاء للميت ، وكان إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم والترحم عليهم ، والاستغفار لهم ، وقد أمر أصحابه أن يقولوا إذا زاروها : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » .

هديه ﷺ فى الصدقة والزكاة [(٣٩)] :

قد دلت سيرته ﷺ فيما آتاه الله من مال ، وسيرته فى أهل

---

(٣٦) صحيح البخارى ، باب الصدقة فى الكسوف .

(٣٧) راجع للتفصيل زاد المعاد — ج — ١ .

(٣٨) راجع للتفصيل كتب الحديث والفقه .

(٣٩) ليرجع إلى معرفة أحكام الزكاة وفقهها إلى كتب الحديث والفقه ، وكتاب « فقه الزكاة » للدكتور يوسف القرضاوى .

بيته ، وفى أقرب الناس وأحبهم إليه ، على نظرته النبوية الخاصة التى كان ينظر بها إلى الأموال ، بل إلى الحياة والكون كله ، وهى نظرة من يستحضر جلال الله وعظمته ويتخلق بأخلاقه ويستحضر اليوم الآخر فينطلق لسانه قائلا : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » (٤٠) ، ويدعو الله ويقول : « أشبع يوما وأجوع يوما » (٤١) ، ويقول : « اللهم ارزق آل محمد قوتا » (٤٢) ، وكان لايجد راحة مع المال الفائض عن حاجته ، والفاضل من أموال الصدقة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان لرسول الله ﷺ عندى فى مرضه ستة دنانير أو سبعة ، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أفرق ، فشغلنى وجع النبى ﷺ ، ثم سألنى عنها : ما فعلت الستة أوالسبعة ؟ قلت لا والله لقد كان شغلنى وجعك فدعا بها ثم وضعها فى كفه فقال ما ظن نبى الله لو لقى الله عز وجل وهذه عنده ، وقد صح عنه أنه قال : من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » (٤٣) .

يقول العلامة ابن قيم الجوزية فى هديه ﷺ فى صدقة التطوع .

---

(٤٠) رواه البخارى ج / ٢ ، ص ٩٤٩ .
(٤١) رواه الترمذى عن أبى أمامة مرفوعاً .
(٤٢) رواه البخارى ج / ٢ ، ص / ٩٥٧ .
(٤٣) أخرجه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مقتبسا من « الأركان الأربعة » باب الزكاة ص ١٥٨ – ١٦١ .

« كان ﷺ أعظم الناس صدقة بما ملكت يده ، وكان لا يستكثر شيئاً أعطاه الله تعالى ، ولا يستقله ، ولا يسأله أحد شيئاً عنده إلا أعطاه قليلاً كان أو كثيراً ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر ، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه ، وكان أجود الناس بالخير ، يمينه كالريح المرسلة ، وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه ، وتارة بطعامه وتارة بلباسه ، كان يتنوع فى أصناف عطائه وصدقته ، فتارة بالهبة ، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية ، وتارة بشراء الشيء ، ثم يعطى البائع الثمن والسلعة جميعاً ، كما فعل بجابر ، وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر ، ويشترى الشيء فيعطى أكثر من ثمنه ، ويقبل الهدية ويكافىء عليها بأكثر منها ، أو بأضعافها ، تلطفا وتنوعا فى ضروب الصدقة والاحسان بكل ممكن[(٤٤)] .

وكان هديه فى الزكاة أكمل هدى فى وقتها وقدرها ونصابها ، ومن تجب عليه ومصرفها ، وراعى فيها مصلحة أرباب الأموال ومصلحة المساكين ، وجعلها الله سبحانه وتعالى طهرة للأموال ولصاحبه ، وقيد النعمة به على الأغنياء[(٤٥)] .

---

(٤٤) زاد المعاد ، ج / ١ ص / ١٥٦ المطبعة الميمنية .

(٤٥) جاء فى القرآن : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ (سورة البراءة – ١٠٣) .

وكان من هديه تفريق الزكاة على المستحقين الذين فى بلد المال ، وما فضل عنهم منها حملت إليه ففرقها هو ﷺ ، ولم يكن من هديه أن يبعث سعاته إلا إلى أهل الأموال الظاهرة ، من المواشى والزروع والثمار ، ولم يكن من هديه أخذ كرائم الأموال فى الزكاة ، بل وسط المال ، وقد فرض زكاة الفطر ، وكان من هديه إخراج هذه الصدقة قبل صلاة العيد (٤٦) .

هديه ﷺ فى الصيام (٤٧) .

« كان فرض الصوم فى السنة الثانية من الهجرة ، وتوفى رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات » (٤٨) .

وكان هدى رسول الله فيه أكمل الهدى ، وأعظم تحصيل للمقصود ، وأسهله على النفوس ، وكان من هديه فى شهر رمضان الاكثار من أنواع العبادات ، فكان جبرئيل عليه الصلاة والسلام يدارسه القرآن فى رمضان ، وكان إذا لقيه جبرئيل أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من

---

(٤٦) ملخصاً من « زاد المعاد » ص / ١٥١ – ١٥٥ .

(٤٧) راجع لحكمة الصوم وأسراره كتاب المؤلف الأركان الأربعة باب الصيام ، ولأحكامه وتفاصيله كتب الحديث والفقه .

(٤٨) زاد المعاد ، ص/ ١٥٢ .

الشهور ، حتى إنه كان ليواصل فيه أحياناً ، وينهى أصحابه عن الوصال ، فيقولون له إنك تواصل ، فيقول : لست كهيأتكم ، إنى أبيت (وفى رواية إنى أظل) عند ربى يطعمنى ويسقينى ، وكان يحث على السحور ويرغب فيه ويجعله سنة للمسلمين ، وقد روى أنس ابن مالك عنه ﷺ : « تسحروا فإن فى السحور بركة »(٤٩) ، وثبت عنه أنه قال : « فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر »(٥٠) ، ويحذر عن تأخير الفطر ويجعله آية للفساد وشعار الغلاة من أهل الكتاب ، فيقول : « لايزال الناس بخير ما عجلوا الفطر »(٥١) ، ويقول : « لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر ، لأن اليهود والنصارى يؤخرون »(٥٢) ، وكان من سنته وسنة أصحابه تأخير السحور .

وكان يفطر قبل أن يصلى ، وكان فطره على رطبات إن وجدها ، فان لم يجدها فعلى تمرات ، فان لم يجد فعلى حسوات من ماء ، وروى عنه أنه كان يقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت » وكان يقول إذا أفطر : « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى »(٥٣) . وسافر رسول الله ﷺ فى رمضان ،

---

(٤٩) للشيخين والترمذى والنسائى .
(٥٠) رواه مسلم .
(٥١) للشيخين والموطأ والترمذى .
(٥٢) أبو داود .
(٥٣) ذكره أبو داود من حديث حسين بن واقدة .

فصام وأفطر ، وخيّر الصحابة بين الأمرين ، وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقووا على قتاله ، وسافر فى رمضان فى أعظم الغزوات وأجلها ، فى غزاة بدر ، وفى غزاة الفتح ، وصلى بالناس صلاة التراويح ثلاث ليال ، وتسامع الناس بذلك فتكاثروا ، « فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال : أما بعد فانه لم يخف على مكانكم ، ولكنى خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها ، فتوفى رسول الله ﷺ والأمر على ذلك [٥٤] ، وقد قام بها الصحابة رضى الله عنهم حتى أصبحت شعاراً لأهل السنة » [٥٥] .

وكان ﷺ يصوم صوم التطوع ، حتى يقال لا يفطر ، ويفطر حتى يقال لايصوم ، وما استكمل صيام شهر غير رمضان ، وما كان يصوم فى شهر ما يصوم فى شعبان ، وكان يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس ، وقال ابن عباس رضى الله عنه كان رسول الله ﷺ لا يفطر أيام البيض فى سفر ولا حضر [٥٦] ، وكان يحض على صيامها ، وكان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام ، وقد

---

(٥٤) رواه البخارى فى باب فضل من قام رمضان .

(٥٥) اقرأ البحث فى التراويح ومبدئها وما قام به أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من تنظيمها وجمع الناس عليها ، وعدد الركعات ، فى شروح الحديث وكتب الفقه المقارن .

(٥٦) ذكره النسائى .

صامه ، فلما قيل له ، يارسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع .

وكان يفطر يوم عرفة ، ولم يكن من هديه ﷺ سرد الصوم وصيام الدهر ، وقد صح عنه أنه قال : إن أحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما (٥٧) .

وكان ﷺ يدخل على أهله فيقول : هل عندكم شيء ؟ قالوا : لا ، قال إني إذاً صائم .

وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ، وتركه مرة فقضاه في شوال ، وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام فلما كان في العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوما ، وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة ، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين (٥٨) .

هديه ﷺ في الحج (٥٩) والعمرة :

لا خلاف أنه ﷺ لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة

---

(٥٧) صحيح مسلم ، كتاب الصيام .

(٥٨) ملخصاً من « زاد المعاد » ص / ١٥٨ – ١٧٦ إلا زيادات يسيرة من غيره .

(٥٩) اقرأ لحكمة الحج وأسراره الفصل الخاص بالحج في كتاب المؤلف « الأركان الأربعة » وللأحكام والتفاصيل الفصل الموسع في « زاد المعاد » .

واحدة ، وهى حجة الوداع ، ولاخلاف أنها كانت سنة عشر ، وقد كان فرض الحج سنة تسع أو عشر ، وقد اعتمر بعد الهجرة أربع عمر ، كلهن فى ذى القعدة .

وسياق حجته ﷺ إجمالياً كمايلى (٦٠) :

« عزم رسول الله ﷺ على الحج ، وأعلم الناس أنه حاج ، فتجهزوا للخروج معه .

وسمع بذلك من حول المدينة ، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ووافاه فى الطريق خلائق لا يحصون ، فكانوا من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، مد البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر لخمس بقين من ذى القعدة يوم السبت ، بعد أن صلى الظهر بها أربعاً ، وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه .

ثم سار وهو يلبى ويقول : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لاشريك لك » والناس معه يزيدون وينقصون ، وهو يقرهم ، ولاينكر عليهم ، ولزم

---

(٦٠) اعتمدنا فى هذا التلخيص على كتاب « زاد المعاد » وقد استوعب الموضوع رواية وتاريخاً وفقهاً وننقل هذا الملخص من كتابنا « السيرة النبوية » ص / ٣٢٩ - ٣٣٤ ، طبع دار الشروق جدة .

تلبيته ، ثم سار حتى نزل بـ « العرج » وكانت زاملته وزاملة أبى بكر واحدة .

ثم مضى حتى أتى « الأبواء » فوادى « عسفان » فى « سرف » ثم نهض إلى أن نزل بـ « ذى طوى » فبات بها ليلة الأحد ، لأربع خلون من ذى الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ، ونهض إلى مكة ، فدخلها نهاراً من أعلاها ثم سار ، حتى دخل المسجد ، وذلك ضحى ، فما نظر إلى البيت أن قال : اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، ويرفع يديه ويكبر ويقول : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام » .

ولما دخل المسجد عمد إلى البيت ، فلما حاذى الحجر الأسود ، استلمه ولم يزاحم عليه ، ثم أخذ عن يمينه وجعل البيت عن يساره ، ورمل فى طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول .

وكان يسرع فى مشيه ، ويقارب بين خطاه ، واضطبع بردائه ، فجعله على أحد كتفيه ، وأبدى كتفه الآخر ومنكبه ، وكلما حاذى الحجر الأسود أشار إليه ، واستلمه بمحجنه ، فلما فرغ من طوافه ، جاء إلى خلف المقام ، فقرأ ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ [٦١] فصلى ركعتين . فلما فرغ من صلاته ، أقبل إلى الحجر

---

(٦١) سورة البقرة - ١٢٥ .

الأسود فاستلمه ، ثم خرج إلى الصفا من الباب الذى يقابله ، فلما قرب منه قرأ ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ أبدأ بما بدأ الله به ، ثم رقى عليه ، حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبره ، وقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » .

وأقام بمكة أربعة أيام : يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء ، فلما كان يوم الخميس ضحى ، توجه بمن معه من المسلمين إلى منى نزل بها وصلى بها الظهر والعصر ، وبات بها ، وكان ليلة الجمعة ، فلما طلعت الشمس ، سار منها إلى عرفة ، ووجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس ، أمر بناقته القصواء ، فرحلت ، ثم سار ، حتى أتى بطن الوادى من أرض عرفة ، فخطب الناس وهو على راحلته ، خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الاسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرر فيها تحريم المحرمات التى اتفقت الملل على تحريمها ، وهى الدماء والأموال والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع ربا الجاهلية كله ، وأبطله وأوصاهم بالنساء خيراً ، وذكر الحق الذى لهن وعليهن ، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف ، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم لن يضلوا ماداموا معتصمين به ، ثم أخبر أنهم مسئولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون ؟ ، قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ،

فرفع أصبعه إلى السماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرات ، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم ، فلما أتم الخطبة ، أمر بلالا ، فأذن ثم أقام الصلاة ، فصلى الظهر ركعتين ، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضا ، وكان يوم الجمعة .

فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فوقف ، وكان على بعيره ،فأخذ فى الدعاء والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس ، وكان فى دعائه رافعاً يديه إلى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيها : .

« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، لايخفى عليك شى من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، والوجل المشفق ، المقر المعترف بذنوبى ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذل جسده ورغم أنفه لك ، اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن لى رؤوفاً رحيماً ، ياخير المسئولين ، وياخير المعطين » .

وهنالك أُنزلت عليه ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾ (٦٢) ، فلما غربت الشمس ، أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، وأفاض

(٦٢) سورة المائدة – ٣ .

بالسكينة ضم إليه زمام ناقته ، حتى إن رأسه ليصيب طرف رحله ، وهو يقول : « أيها الناس عليكم السكينة » ، وكان يلبي فى مسيره ذلك ، لايقطع التلبية حتى أتى المزدلفة ، وأمر المؤذن بالأذان فأذن ، ثم أقام فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال ، فلما حطوا رحالهم ، أمر ، فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء ثم نام ، حتى أصبح .

فلما طلع الفجر صلاها فى أول الوقت ، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ، وأخذ فى الدعاء والتضرع ، والتكبير والتهليل والذكر ، حتى أسفر جداً ، وذلك قبل طلوع الشمس ، ثم سار من مزدلفة ، مردفا للفضل بن عباس ، وهو يلبى فى مسيره ، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات ، فلما أتى بطن محسر ، حرك ناقته ، وأسرع السير ، فان هنالك أصاب أصحاب الفيل العذاب ، حتى أتى منى ، فأتى جمرة العقبة ، فرماها راكبا بعد طلوع الشمس ، وقطع التلبية .

ثم رجع إلى منى ، فخطب الناس خطبة بليغة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه ، وفضله عند الله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفارا ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتبليغ عنه ، وقال فى خطبته تلك :

« اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم » وودع الناس حينئذ فقالوا :« حجة الوداع » .

ثم انصرف إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ، وكان عدد هذا الذى نحره عدد سنين عمره ، ثم أمسك وأمر عليا أن ينحر ما بقى من المائة ، فلما أكمل صلى الله عليه وآله وسلم نحره استدعى بالحلاق ، فحلق رأسه ، وقسم شعره بين من يليه ، ثم أفاض إلى مكة راكبا ، وطاف طواف الافاضة ، وهو طواف الزيارة ثم أتى زمزم ، فشرب وهو قائم ، ثم رجع إلى منى من يومه ذلك ، فبات بها ، فلما أصبح انتظر زوال الشمس ، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثم الوسطى ، ثم الجمرة الثالثة ، وهى جمرة العقبة ، وخطب الناس بمنى خطبتين : خطبة يوم النحر ، وقد تقدمت ، والخطبة الثانية فى ثانى يوم النحر .

وتأخر حتى أكمل رمى أيام التشريق الثلاثة ، ثم نهض إلى مكة ، فطاف للوداع ليلا سحرا ، وأمر الناس بالرحيل ، وتوجه إلى المدينة (٦٣) .

ولما وصل إلى غدير خم (٦٤) ، خطب صلى الله عليه وآله وسلم ، وذكر فيها فضل علي – رضى الله عنه – وقال : « من كنت

---

(٦٣) ملخصاً من « زاد المعاد » مقتبساً منه ، ج / ١ ص ١٨٠ – ٢٤٩ بحذف المباحث التى توسع فيها المؤلف وأفاض ومواضع الخلاف بين الفقهاء والمحدثين .

(٦٤) غدير بين مكة والمدينة بينه وبين الجحفة ميلان .

مولاه فعلى مولاه ، اللهم ، وال من والاه وعاد من عاداه » [٦٥] .

فلما أتى « ذا الحليفة » بات بها ، فلما رأى المدينة ، كبر ثلاث مرات ، وقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دخلها نهاراً » [٦٦] .

(٦٥) السيرة النبوية لابن كثير ج / ٤ ، ص / ٤١٥ - ٤١٦ ، نقلا عن الإمام أحمد والنسائى وسبب ذلك أن بعض الناس كانوا قد اشتكوا علياً وعتبوا عليه ، وتكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التى ظنها بعضهم جوراً وتضييقاً وبخلاً ، والصواب كان مع على فى ذلك (ابن كثير ج / ٤ ، ص / ٤١٤) .

(٦٦) زاد المعاد ج / ١ ص / ٢٤٩ .

الأذكار والأدعية المختصة بالأعمال والأوقات

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكمل الخلق ذكراً لله عز وجل ، بل كان كلامه كله فى ذكر الله وما والاه ، وكان ذاكراً لله فى كل أحيانه وعلى جميع أحواله ، وكان يعلم أصحابه أن يقولوا إذا أخذوا مضاجعهم : « اللهم إنى أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت » قال : « واجعلهن من آخر كلامك ، فإن مت من ليلتك مت وأنت على الفطرة »[1] .

وكان إذا استيقظ قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النشور » وكان إذا استيقظ من الليل قال : « لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم

---

(١) صحيح مسلم ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .

زدنى علما ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » ، وقال ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم ليلة مبيته عنده ، إنه لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض** الخ .. ﴾ وكان إذا أوتر ختم وتره بعد فراغه بقوله : « سبحان الملك القدوس » ثلاثاً ويمد بالثالثة صوته ، وكان إذا خرج من بيته يقول : « باسم الله توكلت على الله اللهم إنى أعوذ بك أن أَضل أو أُضل ، أو أَزل أو أُزل ، أو أَظلم أو أُظلم ، أو أَجهل أو يُجهل علىّ »[٢] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال : « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك ، فإنى لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا رياء ، ولاسمعة ، وإنما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » إلا وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا دخل أحدكم المسجد فيلصل ويسلم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، فإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك ،

---

(٢) حديث صحيح .

وكان يقول إذا أصبح : « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور »[٣] ، وكان يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ولا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، رب أسألك خير ما فى هذا اليوم وخير مابعده ، وأعوذبك من شر هذا اليوم وشر ما بعده . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر » وإذا أمسى قال : « أمسينا وأمسى الملك لله » الخ ..[٤] .

وقال له أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، مرنى بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت ، قال : قل « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ، مليكه ومالكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره إلى مسلم » وقال إذا أصبح أحدكم فليقل : « أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين ، اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهدايته ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده » ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك ، وقد قال لفاطمة ابنته : ما يمنعك أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حى يا قيوم بك أستغيث ، فأصلح لى شأنى ولاتكلنى

---

(٣) حديث صحيح .

(٤) ذكره مسلم .

إلى نفسى طرفة عين » وقال : سيد الاستغفار أن يقول العبد : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ، ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وكان إذا لبس الثوب قال « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه (وسماه باسمه عمامة أو قميصاً أو رداء) اسألك خيره وخير ما صُنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له »[٥] ، ويُذكر عنه أنه قال : من لبس ثوبا فقال : « الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة » غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وقال لأم خالد لما ألبسها الثوب الجديد : « أبلى وأخلقى ثم أبلى وأخلقى » مرتين ، وفى السنن عنه إذا ولج الرجل بيته فليقل : « اللهم اسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا وعلى الله توكلنا » وكان يقول عند دخوله الخلاء : « اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث » وجاء فى بعض الأحاديث « الرجس النجس الشيطان الرجيم » وكان إذا خرج من الخلاء قال : « غفرانك » ويذكر عنه أنه كان يقول : « الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى »[٦] .

---

(٥) حديث صحيح .
(٦) ذكره ابن ماجه .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من أسبغ الوضوء ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » ذكره مسلم ، وزاد الترمذى بعد التشهد : « اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين » . وقد سمع أنه يقول ويدعو : « اللهم اغفرلى ذنبى ووسع لى فى دارى ، وبارك لى فى رزقى » .

وشرع لأمته عند الأذان أن يقول السامع كما يقول المؤذن ، إلا فى لفظ « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » فإنه صح عنه إبدالهما بـ « لا حول ولا قوة إلا بالله » ويقول : « رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » وأن يصلى على النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد فراغه من إجابة المؤذن ، وأن يقول بعد صلاته عليه : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محمودا الذى وعدته إنك لاتخلف الميعاد » .

وكان إذا وضع يده فى الطعام قال : « باسم الله » وكان يقول فى آخر الطعام : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين » وفى بعض الأحاديث « وكفانا وآوانا » وكان إذا رُفع الطعام من بين يديه يقول : « الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا عز وجل » ودعا فى منزل سعد بن عبادة فقال : « أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة » .

وكان يقول إذا رأى الهلال : « اللهم أهله علينا بالأمن

والايمان ، والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله » وفى بعض الأحاديث : « والتوفيق لما تحب وترضى ربنا وربك الله » ، وفى بعضها « هلال خير ورشد ، هلال خير ورشد » .

وكان يقول حين ينهض من جلوسه للسفر : « اللهم بك انتشرت ، وإليك توجهت ، وبك اعتصمت ، وعليك توكلت ، اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى ، اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتم له ، وما أنت أعلم به منى ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت » وكان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ، ثم قال : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ، ثم يقول : « اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، هون علينا السفر واطو لنا البعد »(٧) وإذا أراد الرجوع قال : « تائبون عابدون لربنا حامدون » .

---

(٧) مجموع أحاديث متعددة .

الاذكار العَامَّة وَجَوامِعُ الأدْعِيَة

الأذكار العامــة :

ونذكر هنا أذكاراً وتسبيحات عامة ورد الترغيب فيها ، وذكر فضلها فى أحاديث صحيحة كثيرة يصعب إحصاؤها ، معتمداً فى ذلك على كتاب الأذكار للامام أبى زكريا محيى الدين بن يحيى النووى رحمه الله « وتلخيص الأخبار »[(٨)] ، لوالدنا العلامة السيد عبد الحى الحسنى – رحمه الله – .

قال رسول الله ﷺ : كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

---

(٨) طبع هذا الكتاب باسم « تهذيب الأخلاق » وصدرت له عدة طبعات ، قامت بها حكومة قطر ، والمكتب الاسلامى فى بيروت ، ودار الاعتصام فى القاهرة .

وعن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : أحب الكلام إلى الله تعالى أربع : « سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ولا يضرك بأيهن بدأت .

وقال ﷺ : « الطهور شطر الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن – أو تملأ – بين السموات والأرض » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ ، لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس .

وعن أبي أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : من قال « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، فى اليوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنة مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه . وقال من قال : سبحان الله وبحمده فى اليوم مائة مرة ، حطت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ

يقول : أفضل الذكر لا إله إلا الله .

وعن أبي ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يصبح على كل سلامى[٩] ، من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر صدقة ، ويجزى من ذلك ركعتان تركعهما من الضحى .

وعن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ، فقلت بلى يا رسول الله ، قال قل : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت له الجنة » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى ، فقال يا محمد أقرىء أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان

---

(٩) السُّلامى بضم السين وتخفيف اللام هو العضو وجمعه سُلاميات ، بفتح الميم وتخفيف الياء .

وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »[١٠] .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً » [١١] .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاة [١٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « رُغم [١٣] أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : لا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا على ، فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم [١٤] .

وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف

---

(١٠) والأحاديث كلها أخرجها أصحاب الصحاح فى كتبهم راجع « الأذكار النووية » .

(١١) رواه مسلم .

(١٢) رواه الترمذى .

(١٣) أى لصق بالرغام وهو التراب ذلاً وهواناً .

(١٤) رواه أبو داود .

نصلى عليك ؟ قال قولوا « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعل آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » (١٥) .

جوامع من أدعية النبى ﷺ وتعوذاته :

ونذكر هنا جوامع من أدعية النبى ﷺ معتمداً فى ذلك على « الوابل الصيب » لابن قيم رحمه الله .

قالت عائشة رضى الله عنها كان النبى ﷺ يحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك .

وروى عنه أنه قال : اللهم إنى أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم (١٦) .

---

(١٥) متفق عليه ، من أراد الاطلاع على كلام المحدثين المحققين فى الأحاديث المروية فى هذا المعنى ، وفى بيان معنى الصلاة وخصائص من اندرج فيها ، وشرح مواطنها ، وغير ذلك من اللطائف ، فعليه بمطالعة « جلاء الافهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام » للامام الحافظ ابن قيم الجوزية .

(١٦) المسند وسنن النسائى .

وعن أنس بن مالك قال : كنت أخدم النبى ﷺ فكنت أسمعه يكثر أن يقول : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن ، وضلع الدين [١٧] ، وغلبة الرجال [١٨] .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يدعو : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم ، فقال قائل : ما أكثر ماتستعيذ من المغرم ، قال : إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ، ووعد فأخلف [١٩] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال كان من دعاء النبى ﷺ : اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ومن فجأة نقمتك ، ومن جميع سخطك [٢٠] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله ﷺ إن وافقت ليلة القدر ما أسأل ؟ قال : قولى اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى [٢١] .

وعن ابن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ما سُئل الله عز وجل شيئاً أحب إليه من أن يسأل العافية [٢٢]

---

(١٧) بفتح الضاد واللام : الثقل .
(١٨) متفق عليه .
(١٩) متفق عليه .
(٢٠) صحيح مسلم .
(٢١) رواه الترمذى .
(٢٢) صحيح الحاكم .

وعن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلم من أسلم أن يقول : اللهم اهدني وارزقني وعافني وارحمني [٢٣] ..

وعن بسر بن أرطاة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة [٢٤] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا في الدعاء ؟ ، قالوا : نعم يا رسول الله قال : قولوا : اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك [٢٥] ، وقد أوصى معاذاً أن يقولها دبر كل صلاة [٢٦] . . .

وعلم أصحابه أن يقولوا في الدعاء « اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تتوب عليّ وتغفر لي وترحمني وإذا أردت في خلقك فتنة فنجني إليك منها غير مفتون ، اللهم وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يبلغني إلى حبك [٢٧] .

---

(٢٣) صحيح مسلم .
(٢٤) رواه الامام أحمد في المسند .
(٢٥) رواه الحاكم في صحيحه .
(٢٦) رواه الترمذي .
(٢٧) صحيح الحاكم .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ أمرها أن تدعو بهذا الدعاء : « اللهم انى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت وما لا أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأسألك من خير ما سألك عبدك ورسولك محمد ، وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا »[٢٨] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال كان من دعاء رسول الله ﷺ « اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار »[٢٩] .

---

(٢٨) صحيح الحاكم .

(٢٩) صحيح الحاكم ، مقتبس من كتاب « الوابل الصيب من الكلم الطيب » للامام الحافظ ابن قيم الجوزية ويرجع لدراسة لطائف الأدعية المأثورة وحكمها وأسرارها ، إلى رسالة المؤلف « دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية » طبع المختار الاسلامى — القاهرة .

الجهاد في سبيل الله

مكانة الجهاد فى الدين والحياة النبوية :

لم تكن دعوته صلى الله عليه وآله وسلم مقصورة على معرفة الله المعرفة الصحيحة الكاملة ، ولا على العقائد الصحيحة الثابتة ، ولا على العبادات (القلبية والبدنية والمالية) المقربة إلى الله ، الجالبة لحبه ولرضاه ، بل مع ذلك كله كان الجهاد من خصائص دينه وأركان دعوته وأحب الأعمال إليه ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ،ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ (٣٠) ، ويقول : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ (٣١) . يقول العلامة ابن قيم الجوزية فى كتابه « زاد المعاد » :

« لما كان الجهاد ذروة سنام الاسلام وقبته ، ومنازل أهله أعلى

---

(٣٠) سورة التوبة – ٣٣ ، الصف – ٩ .
(٣١) الأنفال – ٣٩ .

المنازل فى الجنة كما لهم الرفعة فى الدنيا ، فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الذروة العليا منه ، فاستولى على أنواعه كلها ، فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب والجنان ، والدعوة والبيان ، والسيف والسنان ، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً ، وأعظمهم عند الله قدراً ، ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه فى ذات الله كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، « المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو فى الخارج وأصلا له .

مراتب الجهاد وترتيب تشريعه :

والجهاد أربع مراتب ، جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين ، ولكل مراتب ، وقد جاء فى الحديث : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق » وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلهن ، وكان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله ، فإنه كمل مراتب الجهاد ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وشرع فى الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل ، فشمر عن ساق الدعوة ، وقام فى ذات الله أتم قيام ، ودعا إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، وتعرض هو وأصحابه للأذى الشديد ، ووقع ما وقع من هجرة عدد

من أصحابه إلى الحبشة ، ثم هجرته هو صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى المدينة ، فلما استقر بالمدينة وأيده الله بنصره ، وبعباده المؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، ومنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام ، من الأسود والأحمر ، وبذلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء ، والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ، حتى قويت الشوكة واشتد الجناح فأذن لهم حينئذ في القتال ، ولم يفرضه عليهم ، فقال تعالى : ﴿ **أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾ (٣٢) ، ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، فقال : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ (٣٣) ، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، فقال ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ (٣٤) .

فضل الجهاد وآدابه ومنافعه :

وقد ثبت أنه قال : « لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف

---

(٣٢) سورة الحج – ٣٩ .
(٣٣) سورة البقرة – ١٩٠ .
(٣٤) سورة الأنفال – ٣٩ .

سرية ، ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا » وقال « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لايفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » وقال : « غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » وقال : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » وقال : « من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمهما الله على النار » وقال : « لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى وجه عبد » ، وقال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » ، وقال : « ذروة سنام الاسلام الجهاد » وكان الناس إذا اشتد الحرب اتقوا به ﷺ فكان أقربهم إلى العدو .

وكان ينهى عن قتل النساء والولدان ، وكان إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى الله ، ويقول : « سيروا بسم الله وفى سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، ولاتمثلوا ولاتغدروا ولاتقتلوا وليدا » وكان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية كان فيما يوصيه به ويأمره ، أن يقول :

« إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين واخبرهم إنهم إنْ فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أبوا فسلهم الجزية ، فان هم أجابوا

فاقبل منهم وكف عنهم ، فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم [٣٥] ، وكان ينهى فى مغازيه عن النهبة والمثلة ، وكان يشدد فى الغلول جداً ، وثبت عنه أنه قال : « ذمة المسلمين واحدة ، يسعى بها أدناهم » وقال : « ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو » [٣٦] .

وقد غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعاً وعشرين غزوة وبلغ عدد البعوث والسرايا إلى ستين ، ولم يكن فى كلها قتال ، وقد أريق فى جميع هذه الغزوات والسرايا أقل دم عرف فى تاريخ الحروب والغزوات ، فلم تتجاوز قتلى كلها ١٠١٨ قتيلا من الفريقين ، فكانت حاقنة للدماء ، عاصمة للنفوس والأعراض ، باسطة للأمن فى أرجاء الجزيرة ، ممهدة لانتشار الاسلام فى العالم وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وانتقالهم من جور الأديان إلى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا » [٣٧] ، وقد جاء فى حديث : « الجهاد ماض منذ بعثنى الله تعالى إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال ، لايبطله جور جائر ولا عدل عادل » [٣٨] .

---

(٣٥) أخرجه مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً فى حديث طويل .

(٣٦) ملخصاً من « زاد المعاد » ص / ٢٩٢ – ٣٢٦ إلا زيادات يسيرة .

(٣٧) مقتبس من « السيرة النبوية » للمؤلف .

(٣٨) جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطى ، نقلا عن الديلى ورواية عن أنس .

وقد جاء فى حديث « من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة »[٣٩] ، وجاء فى حديث « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق »[٤٠] .

وقد كان الجهاد الاسلامى بشروطه وأحكامه وآدابه – مصدر خير كثير وبركة عامة للعالم ورحمة للانسانية[٤١] ، وقد حرم العالم فوائده وبركاته منذ انقطع وتوقف ، وحلت مكانه الحروب القومية والوطنية والمادية والسياسية ، والثورات الداخلية ، التى لم يرد بها وجه الله ، ولم يقصد بها إعلاء كلمة الله ، وإنقاذ البشرية من الجاهلية وعبادة الطاغوت والنفس ، وإسعادها ، وذل المسلمون وفقدوا قيمتهم ووزنهم حين تركوه ، وتحققت عليهم النبوءة « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ، قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن ، فقال قائل يارسول الله ! وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا

---

(٣٩) رواه الترمذى وأبو داوٗد عن أبى هريرة .
(٤٠) رواه أبو داود عن أبى هريرة .
(٤١) اقرأ الفصل الرابع الرائع من الباب الثانى من كتاب الصراط المستقيم الذى هو مجموع أمالى السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) واقرأ فيه منافع الجهاد وبركاته العامة للخلق كله . (ص / ٩٥ – ٩٦) .

وكراهية الموت »[٤٢] ، وقد صح أنه قال : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »[٤٣] .

وليس الجهاد مقصوراً على القتال – الذى قد يكون أفضل أنواعه ومظاهره إذا كان لابد منه – بل كل سعى يبذل لاعلاء كلمة الله وإظهار دينه ، من الجهاد ، وقد جاء فى الحديث : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر وأمير جائر »[٤٤] .

ولايجوز للمسلمين أن يتغافلوا عن إخوانهم فى الدين ، والمستضعفين من المسلمين ، الذين يستهدفون للظلم والمهانة ، والاضطهاد ، وأنواع الوحشية فى بلد ، ولاذنب لهم إلا الإسلام ، ويجب عليهم أن يبذلوا ما فى وسعهم لتغيير هذا الوضع ، ويشعروا القائمين بهذا الظلم والاضطهاد ، باستنكارهم وامتعاضهم وقلقهم الشديد ، فقد جاء فى حديث صحيح ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل

---

(٤٢) أبو داود كتاب الملاحم ج / ٢ ص / ٢٥٠ .
(٤٣) أيضاً ص / ١٤٢ .
(٤٤) الخطيب عن ابن سعيد .

الجسد ، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٤٥] وجاء فى حديث آخر : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »[٤٦] .

(٤٥) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب .. الجامع الصحيح للبخارى كتاب الأدب .

(٤٦) رواه البيهقى فى شعب الايمان .

تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس
والأخلاق والشمائل النبوية

من مقاصد البعثة المحمدية :

ذكر الله تعالى مقاصد البعثة المحمدية الرئيسية الأولى وفوائدها الأساسية الكبرى فى عدة آيات من القرآن الحكيم ، فقال : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ [1] ، وقال : ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ [2] ، وقال : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ [3] ...

---

(١) سورة البقرة – ١٥١ .
(٢) سورة آل عمران – ١٦٤ .
(٣) سورة الجمعة – ٢ .

ومهمة تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس تشغل مكاناً كبيراً فى دائرة الدعوة النبوية ، ومقاصد البعثة المحمدية ، وفى القرآن ما يدل على أن الأخلاق الفاضلة والآداب الإسلامية هى من أهم مظاهر الحكمة ، فإن القرآن قد أطلق لفظ الحكمة على هذه الأخلاق والآداب بعدما ذكر رؤوسها وأصولها فى سورة الإسراء ، فقال : ﴿ **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾ [(٤)] ، وقال قبل أن يذكر تعاليم لقمان الخلقية : ﴿ **لقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد** ﴾ [(٥)] ، وقال بعد ماذكر الإنفاق فى سبيل الله من غير مَنٍّ ولا أذى ، والتوكل على الله فى عدم الخوف من الفقر ، ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤتَ الحكمة فقد أُوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ [(٦)] . وقد ذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم هذا الغرض العظيم الذى كانت له البعثة ، بكلمة الحصر ، فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » [(٧)] وقد كان خير مثال له

---

(٤) سورة الإسراء – ٣٩ .

(٥) سورة لقمان – ١٢ .

(٦) سورة البقرة – ٢٦٩ .

(٧) رواه مالك فى الموطا بلاغاً عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيره وقد رواه الإمام أحمد فى المسند بسند صحيح عن أبى هريرة مرفوعاً بلفظ « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

وأفضل أسوة فيه ، فقد قال القرآن : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [٨] ، وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت : « كان خُلقه القرآن » [٩] .

وكانت هذه الحكمة والتزكية من أعظم ثمرات الصحبة النبوية ومجالسته – صلى الله عليه وآله وسلم – وعشرته ، فنشأ فى أحضانه جيل تحلى بأفضل الأخلاق وأكرم الصفات ، وتجرد عن رذائل الأخلاق ، ومهلكات العادات ، وذمائم الصفات ، وغوائل النفوس ، وبقايا الجاهلية ، ومغالطات الشيطان ، وقد شهد القرآن باستقامة قلوبهم ، وصلاح نفوسهم ، ووصولهم إلى ذروة تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس ، فقال : ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، وأولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة ، والله عليم حكيم** » [١٠] ، وشهد لهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله : « خير النـاس قرنى » [١١] وشهد لهم أحد رفاقهم (عبد الله بن مسعود رضى الله عنه) بقوله البليغ الوجيز : « أبر الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلهم تكلفاً » ، فقد كانوا زرع

---

(٨) القلم – ٤ .

(٩) رواه مسلم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(١٠) الحجرات – ٧ – ٨ . (١١) رواه البخارى .

الإسلام ، وغرس النبوة ، وصنائع التربية النبوية ، والتزكية المحمدية .

مدرسة دائمة ومصنع للرجال :

ولما انقطعت هذه الصحبة الكريمة ، ولحق الرسول بالرفيق الأعلى كان الحديث النبوى الشريف والسيرة العطرة يملآن هذا الفراغ ، وكان هو « الفقه » و « الحكمة » و « الطب النبوى » لأمراض القلوب وغوائل النفوس ، ومصائد الشيطان ، ثم بدأ علم الحديث يقتصر على علم الأحكام على مر الزمان ، ولتوفر الدواعى القوية غلب الجانب الفقهى والجدلى على الجانب الخلقى والتربوى فى تدريس الحديث وشرحه ، والعناية به ، والإقبال عليه ، وأصبحت كتب السيرة تعتنى بجانبها التاريخى والحوادث والوقائع التى اشتملت عليها ، وبجانبها العلمى والتحقيقى حتى غطى ذلك على جانبها التربوى والعلمى ، إلا أنهما لايزالان مصدرين أصيلين فى تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس ، وفى صقل القلوب وتجلية مرآة النفوس ، ولا يزالان ثروة تسع الأجيال كلها ، وتنير العصور كلها ، فإن ماجاء فى كتب الحديث والسيرة ينقسم بين قسمين ، أفعال وهيئات ، وأمور محسوسة كقيام وقعود ، وركوع وسجود ، وتلاوة وتسبيح ، وأدعية وأذكار ، ودعوة وجهاد ، وغزوات وسرايا ، ومعاملة مع الصديق والعدو فى الصلح والحرب ، وأحكام وتشريعات ، وقسم آخر هو كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء ، وتقصد من وراء هذه التشريعات ،

وهو الإخلاص والاحتساب ، والصبر والتوكل ، والزهد وغنى القلب ، والإيثار والسخاء ، والأدب والحياء ، والخشوع فى الصلاة ، والابتهال فى الدعاء ، والزهد فى زخارف الحياة وإيثار الآخرة على العاجلة ، والشوق إلى لقاء الله ، واعتدال الفطرة ، وسلامة الذوق ، والرحمة على الخلق والرأفة بالضعيف ، ورقة الشعور ، ونبل العاطفة والكرم والحلم ، والتواضع ، والشجاعة ، والحب لله والبغض لله ، ودقائق البر والإحسان ، والإنسانية الرقيقة الكريمة ، والعفو عن المسيء ، والصلة مع القاطع ، وإعطاء المانع ، إلى غير ذلك مما لايفهم إلا بالأمثلة ، ولايصدق إلا بالمشاهدة ، أوالخبر المتواتر ، والحديث المستفيض .

ولذلك نقدم صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجامعة التى وصفه بها أعرف الناس به وأقربهم إليه وأكثرهم اطلاعاً على خلوته وجلوته ، وحياته الاجتماعية والفردية والمنزلية ، وأقواهم ملاحظة ، وتتبعاً لدقائق الأمور ، ثم نقدم نبذة من أخلاقه وشمائله صلى الله عليه وآله وسلم .

الكلمة الجامعة فى صفة رسول الله ﷺ :

ونكتفى بشهادتين ، إحداهما لهند بن أبى هالة (ابن خديجة أم المؤمنين وخال الحسن والحسين رضى الله عنهما) ، وأخراهما لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه .

يقول هند بن أبى هالة :

« كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان [١٢] ، دائم الفكرة ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه [١٣] ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل [١٤] ، لا فضول ولا تقصير ، ليس بالجافى [١٥] ، ولا المهين [١٦] ، يعظم النعمة وإن دقت [١٧] ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ماكان لها ، فإذا تعدى الحق ، لم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها ، وضرب براحته اليمنى بطن

---

(١٢) أى لا ينفك حزن عن حزن يعقبه .

(١٣) جمع شدق بالكسر : طرف الفم ، أى أنه يستعمل جميع فمه للتكلم ، ولايقتصر على تحريك شفتيه كفعل المتكبرين .

(١٤) الفاصل بين الحق والباطل .

(١٥) الغليظ الطبع السيء الخلق .

(١٦) يروى بضم الميم أوبفتحها فالضم على الفاعل من « أهان » أى لا يهين من يصحبه ، والفتح على المفعول من المهانة : أى الحقارة والابتذال ، فالمعنى أنه لم يكن غليظ الخلق ولا ضعيفه ، بل كان معتدلاً بين أنواع المهابة والوقار والجلالة .

(١٧) صغرت وقلت .

أبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح [١٨] ، وإذا فرح غض طرفه » .

ووصفه على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وهو من أعرف الناس به ، وأكثرهم عشرة له ، وأقدرهم على الوصف والبيان ، فقال :

« لم يكن فاحشاً متفحشاً ، ولاصخاباً فى الأسواق ، ولايجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ما ضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا ضرب خادماً ولا امرأة ، وما رأيته منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فاذا انتهك من محارم الله ، كان من أشدهم غضباً ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وإذا دخل بيته كان بشراً من البشر ، يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه ، كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه ويؤلفهم ولاينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوى على أحد منهم بشره ، ولا خلقه ، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه [١٩] ،

---

(١٨) جد فى الإعراض وبالغ فيه .

(١٩) بتشديد الهاء وتخفيفها من التوهية والايهاء : يضعفه .

معتدل الأمر غير مختلف ، ولا يغفل مخافة أن يغفلوا ويملوا ، لكل حال عنده عتاد [٢٠] .

ولا يقصر عن الحق ، ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة ، وأحسنهم مواساة وموازرة ، ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجته ، لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخُلقه ، فصار لهم أباً وصاروا عنده فى الحق سواء ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة ، ولا ترفع فيه الأصوات ، ولا تُؤْبن [٢١] فيه الحرم ، ولا تُنْثَى [٢٢] فلتاته ، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ويوقرون فيه الكبير ، ويرحمون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب .

---

(٢٠) بالفتح هو العدة والتأهب مما يصلح لكل ما يقع ج أعتد وعتد وأعتدة .

(٢١) بضم التاء وسكون الهمزة من الأبن ، وهو العيب والتهمة أى لا تقذف ولا تعاب .

(٢٢) بضم التاء وسكون النون وفتح المثلثة أى لا تشاع ولا تذاع .

وقال : « كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا عياب ، ولا مشاح [٢٣] ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يؤيس منه ، ولا يجيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : « المراء ، والاكبار ، وما لا يعنيه » ، وترك الناس من ثلاث : « كان لا يذم أحداً ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه » وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم [٢٤] ، ويضحك مما يضحكون ، ويتعجب مما يتعجبون ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته ، حتى كان أصحابه يستجلبونه ، ويقول : « إذا رأيتم طالب حاجة فارفدوه » [٢٥] ، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز [٢٦] ، فيقطعه بنهى أو قيام .

أجود الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة [٢٧] ، وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه

---

(٢٣) اسم فاعل من المفاعلة من الشح ، وهو البخل ، وقيل أشده .
(٢٤) أى حديث أفضلهم وكأول تكلمهم ، أى لا عن ملال وسآمة .
(٢٥) الإرفاد الإعطاء والإعانة .
(٢٦) أى يتجاوز عن الحد والحق .
(٢٧) الطبيعة ، ج عرائك .

معرفة أحبه ، يقول ناعته : « لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ » [٢٨] .

نبذة من أخلاقه ﷺ

كان رسول الله ﷺ أوسع الناس صدراً ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ، وكان يمازح أصحابه ، ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم فى حجره ويجيب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر ، ولم ير ماداً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد ، وكان أصحابه يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، وربما تبسم معهم ، وكان حنوناً ودوداً يقول لفاطمة رضى الله عنها ادعى لى ابنى (يعنى الحسن والحسين رضى الله عنهما) فيشمهما ويضمهما إليه ، ورفع إليه ابن بنته ونفسه تقعقع ففاضت عينا رسول الله ﷺ ، فقال سعد ما هذا يا رسول الله ؟ قال : « هذه رحمة يضعها الله فى قلوب من يشاء من عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » وكان العباس فى أسرى بدر ، فسمعه رسول الله ﷺ يئن فلم يأخذه النوم ، فبلغ الأنصار فأطلقوه ، وسألوه أن يتركوا له الفداء فلم يجبهم إلى ذلك .

---

(٢٨) مقتبس من السيرة النبوية » للمؤلف ص / ٣٥٨ – ٣٦٢ ، ملتقطاً من جزء الشمائل للترمذى .

وكان كثير المراعاة لاختلاف الأحوال ، وما يعترى النفوس من فتور وملال ، فكان يتخولهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم ، وكان يتجوز الصلاة إذا سمع بكاء صبى ، يقول : « إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه » .

وكان يقول : « لايبلغنى أحد منكم شيئاً ، فانى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » وكان بالمؤمنين رحيماً ، يقول : « أيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه » ، وكان بعيداً كل البعد عن الافراط والتفريط ، تقول عائشة رضى اللهعنها : « ما خيّر رسول الله ﷺ فى أمرين قط ، إلا اختار أيسرهما ، مالم يكن إثما ، فان كان إثما كان أبعد الناس » ويقول : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

وكان فى منزله بشراً من البشر ، كما تقول عائشة رضى لله عنها : « يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه ، ويرقع الثوب ويخصف النعل » وسئلت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يصنع فى أهله ؟ قالت : « كان فى مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وقالت : « كان ألين الناس وأكرم الناس ، وكان ضحاكاً بساماً » ، يقول أنس رضى الله عنه : « مارأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله ﷺ خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : « ما عاب

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه » .

ويقول أنس رضي الله عنه : خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف ، ولا لما صنعت ؟ لما صنعت ؟ وكان أصحابه لايقومون له إذا رأوه ، لما يعلمون من كراهيته لذلك ، ويقول : لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله ، يقول أنس رضي الله عنه : « كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت » ، وقدم عليه عدي بن حاتم الطائي فدعاه إلى منزله وألقت إليه الجارية وسادة يجلس عليها فجعلها بينه وبين عدي ، وجلس على الأرض ، قال عدي فعرفت أنه ليس بملك ، ورآه رجل فارتعد فرقاً فقال : « هون عليك فاني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد »[29] . وكان يُقمُّ البيت ويعقل البعير ، ويعلف ناضحه ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق .

وكان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ، ولكن يقول : ما بال أقوام يصنعون ويقولون كذا ، ينهى عنه ولا يسمي فاعله .

وكان يرحم الحيوانات والدواب ، ويوصي بالرفق بها ،

---

(٢٩) ابن ماجه ، كتاب الأطعمة .

يقول : « إن الله كتب الاحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ويرح ذبيحته » ، ويقول : « اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » ، ويوصى بالخدم والعبيد ، ويقول : « أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم من لبوسكم ، ولا تعذبوا خلق الله عز وجل ، إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » ، وجاء أعرابى إليه ، فقال يارسول الله : كم أعفو عن الخادم كل يوم ؟ ، قال سبعين مرة ، وقال : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » (٣٠) .

نبذة من الشمائل النبوية :

إن من طبيعة الحب التى فطر الله عليها الانسان ولم تفارقه فى فترة من فترات الزمان ، تقليد من أحبه حتى فى الأمور التى لم يكلف بها تشريعاً وقانوناً ، ومن خصائصها حب الاطلاع على سجاياه ، وما كان يحبه ويؤثره ، وما كان يكرهه ويبتعد عنه ، وما كان يلتزمه

---

(٣٠) ملخص من « السيرة النبوية » للمؤلف ، ص/ ٣٦٦ – ٣٨٤ ، طبع دار الشروق (الطبعة الثانية) والقطع كلها منقولة من كتب الصحاح والسنن ، محال إليها فى الكتاب ، فليراجع .

ويحافظ عليه ، من غير أمر وإلزام أو تكليف شرعى ، ولذلك صنف العلماء قديماً وحديثاً كتباً مستقلة فى الشمائل النبوية ، من أشهرها « الشمائل » للامام الترمذى ، و « شمائل الرسول » للامام أبى الفداء إسماعيل بن كثير ، وإلى القارىء نبذة مما جاء فى كتاب الشمائل للترمذى :

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، يبدأ من لقى بالسلام .

كان شعره إلى نصف أذنيه ، وكان فوق الجمة [٣١] ، ودون الوفرة [٣٢] ، وقد فرق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه ، وكان يكثر دهن رأسه ، وتسريح لحيته ، يحب التيمن فى طهوره إذا تطهر ، وفى ترجله إذا ترجل ، وفى انتعاله إذا انتعل ، وكانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة ، ثلاثة فى هذه ، وثلاثة فى هذه ، وكان أحب الثياب إليه القميص ، وكان إذا استجد ثوبا سماه باسمه ، عمامة ، أو قميصاً ، أو رداء ، ثم يقول : اللهم لك الحمد كما كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره ،

---

(٣١) ما وصل من شعر الرأس إلى المنكبين .
(٣٢) الوفرة ما لم يصل إلى المنكبين .

وشر ما صنع له ، وقد قال عليك بالبياض من الثياب ليلبسها أحياؤكم ، وكفنوا فيها موتاكم ، فانها من خيار ثيابكم ، وقد أهدى إليه النجاشي خفين أسودين ساذجين فلبسهما ثم توضأ ومسح عليهما ، وقد صلى فى نعلين مخصوفتين ، وقد قال لا يمشين أحدكم فى نعل واحدة ، لينعلهما جميعاً ، أو ليحفهما جميعاً ، وكان ينهى أن يأكل الرجل بشماله ، أو يمشى فى نعل واحدة ، وقال : إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمين ، وإذا نزع فليبدأ بالشمال ، وقد ثبت أنه تختم فى يمينه ، وقد اصطنع خاتما ، وكان نقشه محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، وكان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه .

وقد دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء ، وكان إذا اعتم سدل عمامته بين كتفيه ، يقول عبيد بن خالد المحاربى « بينما أنا أمشى فى المدينة إذا انسان خلفى يقول ارفع إزارك ، فانه أتقى وأبقى ، فالتفت فاذا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلت : يا رسول الله إنما هى بردة ملحاء (٣٣) ، قال : أما لك فىَّ أسوة ؟ فنظرت فاذا إزاره إلى نصف ساقيه » .

وكان لا يأكل متكئاً ، ويقول لا آكل متكئاً وكان يلعق

---

(٣٣) أى بردة سوداء فيها خطط بيض يلبسها الأعراب ، ليست من الثياب الفاخرة .

أصابعه ثلاثاً ، وما أكل على خوان (٣٤) . ولا فى سكرجة (٣٥) ، ولا خبز له مرقق ، قيل لقتادة فعلى ما كانوا يأكلون ؟ قال على هذه السفر ، وكان يعجبه الدباء ، ويحب الحلواء والعسل ، وكانت تعجبه الذراع ، قالت عائشة رضى الله عنها ما كان الذراع أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكنه كان لا يجد اللحم إلا غباً .وكان يعجل إليها لأنها أعجلها نضجاً ، وكان يعجبه الثفل (٣٦) .

قال ومن أكل ولم يسم الله تعالى فأكل معه الشيطان ، وقال إذا أكل أحدكم فنسى أن يذكر اسم الله تعالى على طعامه فليقل : بسم الله أوله وآخره ، وكان إذا فرغ من طعامه قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين ، وكان إذا رفعت المائدة من بين يديه ، يقول : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مودع ولامستغنى عنه ربنا ، وكان يقول : إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة ويشرب الشربة فيحمده عليها .

---

(٣٤) قال القارى هو المائدة ما لم يكن عليه طعام ، ويطلق فى المتعارف على ماله أرجل ويكون مرتفعاً عن الأرض ، واستعماله من صنع المترفين ، وقد جاء فى حديث إذا رفعت المائدة من بين يديه ، فقال بعض العلماء أكل عليها بعض الأحيان لبيان الجواز .

(٣٥) إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل .

(٣٦) الثفل ما يرسب من كل شيء وقد يطلق على ما بقى بعد الطعام . .

وكان أحب الشراب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحلو البارد ، وكان يقول ليس شيء يجزىء مكان الطعام والشراب غير اللبن ، وشرب من زمزم وهو قائم ، وكان يتنفس فى الاناء ثلاثا . وكانت له سكة [٣٧] ، يتطيب منها ، وكان لايرد الطيب ، ويقول : ثلاث لا ترد : الوسائد ، والدهن ، والطيب ، واللبن [٣٨] . وقد قال : طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه ، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه .

تقول عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسرد سردكم هذا ، ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه ، وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه [٣٩] . وكان لا يضحك إلا تبسماً ، يقول عبد الله بن الحارث ، ما رأيت أحداً أكثر تبسماً ، من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وروى عنه أنه ضحك حتى بدت نواجذه ، يقول جرير بن عبد الله ، ما حجبنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ أسلمت وما رآنى إلا تبسم ، يقول أنس بن مالك : إن كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليخالطنا [٤٠] ، حتى يقول لأخ لى صغير ،

---

(٣٧) ضرب من الطيب .

(٣٨) أخرجه الترمذى فى جامعه بهذا السند والمتن ، وليس فيه لفظ الطيب ، بل فيه الوسائد ، والدهن ، واللبن .

(٣٩) لعل ذلك كان عند الضرورة ، وفى الكلام المهم الدقيق .

(٤٠) خالطه ، مازحه .

يأأبا عمير مافعل النغير ؟ (٤١) ، وقالوا : يا رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – إنك تداعبنا (٤٢) ، فقال إنى لا أقول إلا حقاً ، وكان يتمثل بشعر ابن رواحة ، ويتمثل ويقول : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » (٤٣) ، ويقول إن أصدق كلمة قالها الشاعر : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وأصاب حجر إصبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدميت فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت
وفى سبيل الله ما لقيت (٤٤)

وروى عنه أنه قال يوم حنين :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

---

(٤١) طائر صغير المنقار ، أحمر الرأس ، وكان للغلام نغير يلعب به ، فمات فحزن الغلام عليه ، فمازحه النبى ﷺ .

(٤٢) يعنى تُمازحنا .

(٤٣) وتمام البيت :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

والبيت لطرفة بن العبد فى معلقته .

(٤٤) وقد يشكل عليه أنه جاء فى القرآن : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾ (يس – ٦٩) ويجوز أن يقال إن جرى كلام موزون على اللسان لا ينافيه ، ويجوز أن يكون البيت لغيره ﷺ وقد تمثل به ﷺ .

وقد أذن فى إنشاد الشعر وأجاز عليه (٤٥) واستحسنه ، يقول جابر بن سمرة ، جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من مائة مرة ، وكان أصحابه يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون الأشياء من أمر الجاهلية ، وهو ساكت ، وربما تبسم معهم ، وكان يضع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد يقوم عليه ، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو قال ينافح ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله ﷺ .

وكان إذا أخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن ، وقال : رب قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، وإذا أوى إلى فراشه قال : اللهم باسمك أموت وأحيا ، وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، وكان فراشه الذى ينام عليه من أدم حشوه ليف ، وكان يعود المريض ، ويشهد الجنازة ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ، وحج على رحل رث ، عليه قطيفة (٤٦) لاتساوى أربعة دراهم ، يقول : لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت ، وكان لا يكاد يواجه أحداً بشيء يكرهه ، وكان يقبل الهدية ويثيب عليها ، وكان أشد حياء من العذراء

---

(٤٥) وقد سمع قصيدة كعب بن مالك وأعطاه بردة .

(٤٦) كساء له خمل .

فى خدرها ، وكان إذا كره شيئا عرف فى وجهه [٤٧] .

(٤٧) مقتبس من كتاب « الشمائل » للامام أبى عيسى الترمذى واستفيد فى شرح الكلمات وتوجيه بعض ما ورد فى الأحاديث من « الخصائل النبوية » للعلامة المحدث محمد زكريا السهارنفورى المهاجر إلى المدينة المنورة المتوفى فيها سلخ رجب سنة ١٤٠٢ هـ ، وقد كانت اضافة هذا الفصل على اثر وفاته ، رحمه الله تعالى ورفع درجاته .

المدرسة الربّانيّة لتهذيب الأخلاق وتزكية النّفوس

ترياق لسموم غوائل النفس وأمراض القلب :

وهنا مجموعة من آيات هى تعليمات أساسية لتهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس ، وترياق لسموم غوائل النفس ، ومكايد الشيطان ، وأمراض القلوب ، لايعدله ترياق آخر فى القوة والتأثير ، فانها تنزيل من حكيم حميد ، وشرع من فاطر النفوس ، وقد قال :﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١) وتعليم من النبى المعصوم الذى بعثه الله للتزكية وتعليم الكتاب والحكمة ، والذى يقول : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » من أخذ نفسه بها ، وراقبها فى جد وصرامة ، وفى اخلاص وأمانة ، بلغ الغاية من تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفس ، وإذا أخذ بها فرد سعد وتزكى ، وإذا أخذ بها مجتمع كان مجتمعاً مثاليا .

---

(١) الملك - ١٤ .

آيات قرآنيّة

الاخلاص :

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ (٢) .

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ (٣) .

التوبة المخلصة :

﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ (٤) .

الصبر والعفو :

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (٥) .

---

(٢) البينة – ٥ .
(٣) الزمر – ٣ .
(٤) التحريم ٨ .
(٥) الشورى – ٤٣ .

مراقبة الله :

﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ [٦] .
﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[٧] .

التقوى والسداد فى القول والعمل :

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ [٨] .
﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ [٩] .

اليقين والتوكل :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [١٠].
﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت ﴾ [١١] .

---

(٦) الحديد – ٤ . (٧) غافر – ١٩ .
(٨) آل عمران – ١٠٢ ، وتبينها آية ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ (التغابن – ١٦) .
(٩) سورة الأحزاب – ٧٠ .
(١٠) إبراهيم – ١١ .
(١١) سورة الفرقان – ٥٨ .

الاستقامة :

﴿ فاستقم كما أمرت ﴾[12] .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءا بما كانوا يعملون ﴾ [13] .

الاعتصام بالكتاب والسنة :

﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ [14] .

﴿ وماآتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [15] .

حب الله ورسوله :

﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ [16] .

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ [17] .

---

(١٢) سورة هود - ١١٢ .
(١٣) سورة الأحقاف - ١٣ ، ١٤
(١٤) سورة النساء - ٥٩ .
(١٥) سورة الحشر - ٧ .
(١٦) سورة البقرة - ١٦٥ .
(١٧) سورة التوبة - ٢٤ .

التعاون على البر والتقوى :

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [18] .

الأخوة الاسلامية :

﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ [19] .

أداء الأمانة :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ [20] .

الاصلاح بين الناس والعمل المفيد :

﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة ، أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ [21] .
﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ [22] .

---

(١٨) سورة المائدة – ٢ .
(١٩) سورة الحجرات – ١٠ .
(٢٠) سورة النساء – ٥٨ .
(٢١) سورة النساء – ١١٤ .
(٢٢) سورة الأنفال – ١

الملاطفة والتواضع :

﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾[٢٣] ، ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ﴾[٢٤] .

اتباع أسوة الرسول :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾[٢٥] .

الخوف والرجاء :

﴿ وإياى فارهبون ﴾[٢٦] .
﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هوالغفور الرحيم ﴾[٢٧] .
﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[٢٨] .

---

(٢٣) سورة الحجر - ٨٨
(٢٤) سورة الضحى - ٩ ، ١٠ .
(٢٥) سورة آل عمران - ٣١
(٢٦) سورة البقرة - ٤٠
(٢٧) سورة الزمر - ٥٣
(٢٨) سورة الأعراف - ٩٩

﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [٢٩] .

الزهد فى الدنيا والتقلل منها :

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ [٣٠] .
﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ، لو كانوا يعلمون ﴾ [٣١] .

الايثار على النفس :

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ [٣٢] .
﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ [٣٣] .

تحريم الكبر والفساد .

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين ﴾ [٣٤] .

---

(٢٩) سورة يوسف – ٨٧
(٣٠) سورة الكهف – ٤٦
(٣١) سورة العنكبوت – ٦٤
(٣٢) سورة الحشر – ٩
(٣٣) سورة الدهر – ٨
(٣٤) سورة القصص – ٨٣

حسن الخلق وتملك النفس :

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ [٣٥] .
﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [٣٦] .

صحبة خيار الناس .

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ﴾ [٣٧] .
﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [٣٨] .

حق المسلم على المسلم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ،

---

(٣٥) سورة آل عمران – ١٣٤
(٣٦) سورة الأعراف ١٩٩
(٣٧) سورة الكهف – ٢٨
(٣٨) سورة التوبة – ١١٩

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ (٣٩) .

﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ (٤٠) .

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ (٤١) .

﴿ ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ﴾ (٤٢) .

---

(٣٩) سورة الحجرات – ١١

(٤٠) سورة الحجرات – ١٢

(٤١) سورة الأحزاب – ٥٨

(٤٢) سورة النور – ١٢ .

أحاديث نبويّة

أهمية سلامة النية ورجاء الثواب من الله فى الأعمال كلها :

إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إل دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه [١] .

من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه ، من قام ليلة القدر إيمان واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه [٢] .

شرائط الايمان ، وصفات المسلم الحقيقى :

لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به [٣] .

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) للبخارى

(٣) الحكيم الترمذى والخطيب .

لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين [٤] .

لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه [٥] .

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [٦] .

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم [٧] .

لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه .. قال الراوى (وهو ابن مسعود رضى الله عنه) وما بوائقه ، يارسول الله ﷺ ؟ قال : غشمه وظلمه [٨] .

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه [٩] .

ثلاث من الايمان ، الإنفاق من الإقتار ، وبذل السلام للعالم ، والإنصاف من نفسك [١٠] .

لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له [١١] .

---

(٤) رواه البخارى عن أنس .
(٥) رواه أحمد .
(٦) للشيخين والترمذى والنسائى .
(٧) للترمذى والنسائى .
(٨) رواه أحمد .
(٩) رواه مالك وأحمد والترمذى .
(١٠) للبزار .
(١١) أخرجه الامام أحمد فى المسند وابن حبان فى صحيحه .

ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره إن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار [١٢] .

الدين النصيحة ثلاثا ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم [١٣] .

آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان [١٤] .

إن الحياء من الايمان [١٥] .

اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فان كثرة الضحك تميت القلب [١٦] .

المجتمع المسلم الذى قام على التعاليم النبوية :

ألا إن المسلم أخو المسلم ، فليس يحل لمسلم لأخيه شيء إلا ما أحل من نفسه [١٧] .

---

(١٢) للشيخين والترمذى والنسائى ، واللفظ للبخارى .
(١٣) رواه مسلم .
(١٤) متفق عليه .
(١٥) متفق عليه .
(١٦) للترمذى .
(١٧) للترمذى .

لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله ، وعرضه [١٨] .

لايحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام [١٩] .

المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته . ويحوطه من ورائه [٢٠] .

ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين الحالقة [٢١] .

لا تحقرن من المعروف شيئاً . ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق [٢٢] .

---

(١٨) رواه مسلم .
(١٩) رواه البخارى .
(٢٠) رواه أبو داود .
(٢١) رواه أبو داود .
(٢٢) رواه مسلم .

ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى [٢٣] .

الخلق عيال الله ، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله [٢٤] .

مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه [٢٥] .

الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء [٢٦] .

مهلكات الأعمال والأخلاق :
والموانع من دخول الجنة :

لا يدخل الجنة قاطع رحم [٢٧] .

لا يدخل الجنة نمام ، وفى رواية قتات [٢٨] .

---

(٢٣) رواه البخارى ومسلم .
(٢٤) رواه البيهقى فى شعب الايمان .
(٢٥) للشيخين وأبى داود والترمذى .
(٢٦) للترمذى وأبى داود
(٢٧) للشيخين وأبى داود والترمذى
(٢٨) متفق عليه .

اياكم والحسد ، فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب [٢٩] .

دب إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد ، والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين [٣٠] .

ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه [٣١] .

مكارم الأخلاق ومقتضيات الكياسة والتقوى :

أمرنى ربى بتسع : خشية الله فى السر والعلانية ، وكلمة العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرة . وآمر بالمعروف [٣٢] .

ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها [٣٣] .

---

(٢٩) رواه أبو داود

(٣٠) رواه الترمذى وأحمد .

(٣١) رواه الترمذى فى جامعه والإمام أحمد فى مسنده .

(٣٢) رواه رزين .

(٣٣) للبخارى وأبى داود ، والترمذى .

أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا ، وخياركم خياركم لنسائهم [٣٤] .

إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم [٣٥] .

دع ما يريبك إلى ما لا يريبك [٣٦] .

استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب . والإثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر . وإن أفتاك الناس وأفتوك [٣٧] .

اتق الله حيث ما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بالخلق الحسن [٣٨] .

من يضمن لى ما بين رجليه وما بين لحييه ضمنت له الجنة [٣٩] .

---

(٣٤) رواه الترمذى .
(٣٥) رواه أبو داود .
(٣٦) رواه أحمد والدارمى .
(٣٧) رواه أحمد والدارمى .
(٣٨) رواه أحمد والترمذى والدارمى .
(٣٩) للبخارى والترمذى .

من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة [٤٠] .

من كانت الآخرة همه ، جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدر له [٤١] .

الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [٤٢] .

---

(٤٠) للترمذى .
(٤١) للترمذى .
(٤٢) للترمذى .

أهميّة الحضارة الاسلامية والحاجة إليها وتناقضها مع الحضارة الغربيّة

إن الدين الذى يشمل الحياة البشرية بشعبها ومجالاتها ، والذى يسبك الحياة كلها – عن طريق العقائد والحقائق التى يدعو إليها – فى قالب خاص ، لا يمكن أن يعيش بغير حضارة خاصة به ، وجوّ ملائم له مساعد على تحقيق أهدافه ومثله وقيمه ، ويمتاز الدين الإسلامى من بين الديانات بكون العبادات والفرائض فيه تملأ فراغاً كبيراً ، ولها شروط وقواعد معينة ، وللطهارة والعفة فيه تصور خاص فليست الطهارة عنده مرادفة بكلمة « النظافة » وليست العفة فيه يكفى لها الابتعاد عن الجنايات الخلقية فحسب بل هى أوسع وأعمق معنى وأكثر شمولاً واحتواء .

إن هذا الدين لا ينسجم مع الحضارة الغربية التى نشأت واختمرت تحت ضغط عوامل تاريخية خاصة ، وفى بيئة كانت تتحكم فيها المادية ويسود عليها – فى فترات كثيرة وطويلة – العداء للدين والثورة على الأخلاق والقيم ، وقد عبّر عن هذه الحقيقة أحد خبراء هذه الحضارة وتاريخها [1] فلخّصها فى جملة صغيرة يقول فيها : « إن

---

(١) هو الدكتور العلامة محمد اقبال الشاعر الاسلامى المشهور .

روح هذه المدنية (الغربية) ما عادت عفيفة طاهرة » .

إن نظام العبادات فى الإسلام مربوط برمّته بالطهارة ، أما الحضارة الغربية فمثلها ، الأعلى النظافة فقط ، إن الحضارة الإسلامية تدعو إلى عفة القلب والنظر ، وعفة التفكير والخواطر ، أما الحضارة الغربية فلا تعرف غير احترام القانون والعرف الشائع ، فإذا سمح الجو والفريق الثانى بعمل فهو غير مستهجن عنده ، ولا قبيح ، ولا يُنافى العفة والكرامة ، إن المدنية الإسلامية تطلب الحجاب والتستّر ، أما الحضارة الغربية فلا ترى للحجاب والتستّر معنى ولا قيمة ، وقد ثارت فى أول رحلتها على مفهومهما ، إن الحضارة الإسلامية تعارض اختلاط الرجل بالمرأة فى حرّية وتراه خطراً على المجتمع ومصدراً لفوضى خلقية ، وتفكك نظام الأسرة ، حين تنظر إليها الحضارة الغربية كحاجة بشرية وحقيقة بدهية .

زيادة على ذلك تختلف المدنية الإسلامية عن الحضارة الغربية فى نظرها إلى الصّور [1] والكلب واستعمال الرجال الذهب والفضة والحرير ، وكذلك تختلف وجهة نظرهما فى قضية تزكية لحوم الحيوان وفى قضايا كثيرة ، فكانت النتيجة الطبعية أن البقاء على نظام الطهارة

---

(١) قد جاء فى حديث رواه البخارى فى صحيحه : « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة » وبلفظ آخر فى حديث : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة تماثيل » ، « إنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب » ، الجامع الصحيح للبخارى ، كتاب بدء الخلق .

والعفة الإسلامى ، والتستّر والحياء والعفاف والبساطة والاعتدال فى الحياة والسلوك على طريق السنة والأسوة النبوية ، مستحيل مع اتخاذ الحضارة الغربية ، كأسلوب للحياة ونمط للمجتمع ، ولا تعترض هذه الصعوبات للمسلم حين احتضانه للحضارة الغربية بشكل دائم ، بل تعترض له هذه الصعوبات حين يقضى فترة قصيرة فى الجو الحضارى الغربى ، ويشهد بذلك من كثر نزوله وطال فى الفنادق الكبرى أو المنازل المترفهة التى تقوم على الطراز الغربى الحديث ، سواء ذلك فى الغرب ، أو فى الشرق ، حتى فى البلاد الإسلامية والعربية ، فتصعب عليه المحافظة على الطهارة وأداء الفرائض ، ويضطر إلى أن يتخطى حدود الشريعة الإسلامية (٢) .

لذلك يجب على القراء – إضافة إلى العقائد والعبادات والسنن والمستحبات ، والسيرة والعادات الإسلامية التى جاءت فى هذا الكتاب بقدر الحاجة – أن يشكّلوا فى بيوتهم وفى أجوائهم الحضارة الإسلامية وطريق الحياة الإسلامية ويبتعد فيها عن خصائص الحضارة الغربية وشعائرها كالاختلاط الحر والسفور الوقح والهيام بالتصوير والغناء والموسيقى والملاهى ووسائلها وآلاتها ، ومسّ الكلب وتقريبه ، والمأكولات التى يشك فى حلّها بقدر الإمكان ، والتزام الحجاب الشرعى ، والحياء والتستّر ، والترتيبات التى تيسّر الطهارة ومعرفة القبلة ونظافة الثياب والأوانى ، والعناية بالتعليم الدينى للبنين

---

(٢) راجع للتفصيل رسالة المؤلف « أهمية الحضارة وتاريخ الديانات وحياة أصحابها » .

والبنات ، فإن الحياة الدينية الكاملة لا تقوم بغير العناية بما ذكرنا ، وتجريد أمة عن الحضارة الخاصة التى نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، مرادف لعزلها عن الحياة وتحديدها فى إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيّق ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فتنطلق بذلك على طريق الردة الفكرية والحضارية ، وتبتلى بطبيعة الحال بالفوضى الخلقية وتفكّك نظام الأسرة ، وينشأ فيها الجُذام الخلقى ، الذى أصيبت به أوربا ، وأمريكا ، وتنتشر فيها عادة شرب الخمر وتعاطى المسكرات ، الذى بلغ أوجّه فى المجتمع الغربى ، والذى بدت طلائعه فى بعض الأقطار الإسلامية التى قلدت الحضارة الغربية تقليداً أعمى وتهافتت عليها تهافت الظمآن على الماء والفراش على النور ، والله المستعان .

تجارب وتوصيات

لقد كان فى ما قدمناه من شرح طبيعة هذا الدين وسماته البارزة ، وشرح العقيدة السنية الخالصة ، والعبادات المشروعة فى الاسلام ، وهدى رسول الله ﷺ وذوقه فيها ، وسيرته فى الجهاد فى سبيل الله ، والجهد لاعلاء كلمة الله ، والمفهوم القرآنى والنبوى عن تهذيب الأخلاق وتزكية النفس ، ومدى اهتمام القرآن والسنة بهما ، وما عرضناه من الأخلاق والشمائل النبوية ، والسيرة المطهرة ، وما سردناه من آيات وأحاديث ، فى تربية المسلم ، وتكوين الفرد المثالى ، ووقايته من غوائل النفس ومصايد الشيطان ، ومهلكات الأخلاق والأعمال ، لقد كان فى كل ذلك كفاية وغنى لمسلم ناصح لنفسه ، منصف معها ، مؤثر للآجلة على العاجلة ، والباقية على الفانية ، راغب فى الوصول إلى درجات الايمان والإحسان . بل كان فى الإمكان – لو حالفه التوفيق الالهى – الوصول إلى مراتب الولاية العامة والخاصة ، وكمال اتباع الرسول ﷺ ، وقد قال الله تعالى :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ [1] .

وكأنى بقارىء يقول : إن أكثر ما جاء فى هذا الكتاب الصغير كان معلوماً لدينا ، وهو ما حواه كتاب الله المتلو فى كل مكان ، والحديث المعروف فى كل زمان ، وهو منثور إن لم يكن مجموعاً ، فى مصنفات العلماء المعتمد عليهم قديماً وحديثاً ، وقد ذكر المؤلف نفسه ما ألف فى هذا الموضوع ، من عصر الامام الغزالى إلى عهد قريب ، فلم يكن فى الكتاب شىء طريف أو مبتكر ، ولم يكن للقراء فيه اكتشاف لمجهول ، أو عثور على كنز دفين ، أو ركاز مطمور ، إلا ماكان من التلخيص والتيسير ، ومراعاة الذوق العصرى ، فما هو الطريق للوصول إلى المطلوب ، والانتفاع بكل ما جاء فى هذا الكتاب ، – وتحويل الحياة التى مضت على شاكلتها العرفية المعتادة ، إلى حياة إيمان واحتساب وانقياد واتباع ، منصبغة بالصبغة الايمانية ، متخلقة بالأخلاق الاسلامية ، وبماذا يبدأ المسلم ، ويقرره ويلتزمه ، حتى تتحقق النتيجة المطلوبة ، ويشاهد التحسن المحسوس الذى يطمئن إليه ضميره ، ويشعر به المعاشرون له ؟ .

وهنا بعض تجارب وتوصيات ، عسى أن تنفع القارىء الجاد ، الذى أكرمه الله بقوة الارادة والعزم ، والجد ، والحب للواقعية .

---

(١) سورة العنكبوت – ٦٩ .

يجتهد القارىء أن يقرأ هذا الكتاب لينتفع به ويتخذه دستوراً لحياته ، ودليلاً ومرشداً فى عقيدته وسلوكه ، لا لأنه كتاب عالم مجتهد، باحث محقق ، خصه الله بعلم لم يشركه فيه الآخرين ، فليس هذا شأن الكتاب ولا شأن المؤلف ، وما هلك امرؤ عرف قدره ، بل لأنه قد جاء فيه ما لا يسع المسلم جهله من أصول ومبادىء ، ومقررات دينية ، وما أجمع عليه المسلمون ، وخصوصاً أهل السنة ، وما صح عن رسول الله ﷺ من سنن وأخلاق وشمائل ، فلا يقرؤه تسلية وترويحاً للنفس ، أو لزيادة فى المعلومات ، أو للحكم على مؤلفه بالبراعة أو بالتخلف .

ويشرك المؤلف نفسه مع القارىء الكريم لانه ليس أقل حاجة منه فى الانتفاع بما جاء فى هذا الكتاب ، فيقول :

١ - نبدأ بما بدأ الله به فى كتابه ورسوله فى دينه وتبليغه للرسالة ،فلنعتن بتصحيح عقيدتنا ، وعرضها على القرآن الكريم ، الذى لا يدع مجالاً لفساد العقيدة وضعفها ، وهو المرآة الوضيئة الأمينة التى يرى فيها كل إنسان وجهه وملامحه ، وقد جاء فى كتابنا هذا - بحول الله تعالى - خلاصة ما فهمه الراسخون فى العلم ، والمسلمون فى القرون المشهود لها بالخير من تعاليم القرآن وتعليم الرسول للعقيدة الاسلامية السليمة ، وما اتفق عليه أهل السنة البعيدون عن الافراط والتفريط ، وعن تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

٢ - لنعتن بالعبادات المشروعة ، وأركان الاسلام العملية

الأربعة ، ظاهراً وباطناً وقالباً وروحاً ونترسم فى كل ذلك – بقدر الامكان – آثار خطى رسول الله ﷺ ونتتبع التتبع الدقيق الأمين ، هديه وأسوته وسننه ، إذ هو النموذج الأعلى ، والمثل الكامل فيها ، وقد قال الله تعالى عن حياته كلها – فضلا عن عباداته – ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾[٢] ، وبقدر اقتدائنا به ، ونجاحنا فى تقليده واتباعه تكمل عباداتنا ، وتقع عند الله مكان القبول والرضا ، وقد حفظت السنة ودواوين الأحاديث الصحيحة الدقيق والجليل من هديه والتزاماته وعاداته فى هذه العبادات والفرائض الدينية ، وفى الدعوة والجهاد فى سبيل الله ولم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها .

وبعد تطبيقها مع عمل الرسول ﷺ وهديه نبذل جهدنا فى أن تكون هذه العبادات وخصوصاً الصلاة ، متحلية بحقيقتها ، مشبعة بروحها وقوتها ، فتؤدى نتيجتها وأثرها فى الأخلاق ، وفى الحياة الفردية والاجتماعية وتكون أقوى وسيلة للقرب من الله وزيادة اليقين والمعرفة والحب الالهى .

٣ – إن ما يلى تصحيح العقائد ، والمحافظة على الفرائض ، وأداء حقوق الله فى الاهمية والتقدم ، قضية أداء حقوق العباد ، فإن من الثابت أن الله يعفو عن التفريط فى حقوقه ، ولكن التفريط والخيانة فى حقوق العباد والإخلال بها إنما يُوكل فى الدنيا والآخرة

(٢) سورة الأحزاب – ٢١ .

إلى أصحاب هذه الحقوق من الناس ، وقد جاء فى حديث رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ،قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلل منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه » .

وأخرج مسلم عن أبى أمامة أياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار ، وحرَّم عليه الجنة » ، فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ فقال : « وإن كان قضيباً من أراك » ، وقد اخبر النبى ﷺ « بأن الشهيد تُكفر عنه خطاياه » ، قال : « إلّا الدّين فإن جبريل قال لى ذلك » (رواه مسلم) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتدورن ما المفلس ؟ » قالوا : المفلس من لا درهم له ولا متاع ، فقال : « إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فُنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح فى النار » (رواه مسلم) .

وفى ضوء هذه الأحاديث الصحيحة ، يجب علينا — حين بدأنا رحلتنا فى إصلاح نفوسنا وإكمال ديننا — أن نُحاسب نفوسنا فى أمانة وحياد ، ونحاول بقدر المستطاع أن نكون فى حلٍّ مما يعود

علينا من حق لمسلم ، أو دين أو تبعة ، خصوصاً فى المعاملات التجارية ، والأموال والأملاك المشتركة ، وحقوق الورثة أو أذى لحق بمسلم ، أو تهمة وافتراء وغيبة ، فى حياتنا قبل يوم الحساب الذى لا تكون فيه عملة إلّا الحسنات والسيئات كما جاء فى الأحاديث .

٤ – ولنقبل بعد ذلك على تهذيب الأخلاق وتزكية النفس وتخليتها عن الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، لأن الأخلاق الرذيلة هى الحجب الصفيقة التى تمنع من الانتفاع بالتعليمات النبوية ، والانصباغ بصبغة الله وهى التى تجعل الانسان فريسة للنفس ولعبة للشيطان وتعرض للخطر ، وتورط فى المهالك ، وقد جاء فى القرآن : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ (٣) ، ويجب أن نخضع فى ذلك لمقاييس الكتاب والسنة والتعليمات النبوية ، ونحكمها فى أنفسنا وأخلاقنا .

والانسان – مهما أوتى من الذكاء وبعد النظر ودقة الملاحظة – لا يرى وجهه إلا فى مرآة والسعيد من اطلع على مواضع الضعف عنده ، والأمراض الخلقية التى هو مبتلى بها كالكبر والحسد ، والطمع والشره ، والنهامة والشح والحرص ، والحقد والضغينة ، وحب الدنيا وحب المال الزائد ، واحتقار المسلم ، فيتشاغل بازالتها ، والتخلص منها ، ويجاهد فى سبيلها ، كما يجاهد الانسان فى عدوه ، وسعيد من وجد من الربانيين والمربين الحاذقين

---

(٣) سورة الجاثية – ٢٣ .

من نبهه على ذلك ووصف له طرق التخلص منها ، ويسر ذلك له ، وسرى نور قلبه إليه ، وأثر فيه إنصافه لنفسه ولغيره واعتبر بشدة محاسبته لنفسه ، وتورعه وخشيته لله ، وقد كانت الصحبة الخيرة من أيسر الطرق للاصلاح فى الزمن القديم ، وقد كان كبار الأئمة وحملة العلم يتحرون صحبة هؤلاء الربانيين المخلصين وإن كانوا أقل منهم علماً لأنهم كانوا يعرفون فى مجالسهم ما يستطيعون أن يكملوا به نفوسهم ، ولا يجعلون للشيطان عليهم سبيلا ، وقد لام الامام أحمد ابن حنبل ابنه فى مثل هذه المجالسات لمن كان دونه فى العلم ومعرفة الحديث ، فقال : « يا بنى إنما يجلس الرجل حيث ما يجد صلاح قلبه » ، ولايخلو زمان – على فساد منتشر ومتزايد على الأيام – من وجود هؤلاء الربانيين وإن ندر وجودهم كالكبريت الأحمر ، ومن فاته ذلك لسبب من الأسباب فيقبل على نفسه وباطنه ، ويتفقده تفقد ناقد بصير ، أو محايد أجنبى ، وليتعرف على دائه أو أدوائه الأصيلة ، والقرآن يقول :

﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ (٤) ، ولاشك أنه سيهتدى إلى الثغرات الخلقية ، والمستنقعات العميقة العفنة التى يحملها فى باطنه ، فيشتغل بمعالجتها فى ضوء الكتاب والسنة وتجارب المربين الحكماء من ربانيي هذه الأمة ، وتوجيهاتهم ، وقد كتب علماء الاسلام كثيراً فى هذا الموضوع وانتفع به آلاف مؤلفة

---

(٤) سوة القيامة – ١٤ ، ١٥ .

من المسلمين ككتاب « إحياء العلوم » للغزالي [٥] ، و « تلبيس ابليس » لابن الجوزي [٦] ، و « إغاثة اللهفان في مكايد الشيطان » [٧] ، و « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » لابن القيم ، و « جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم » لابن رجب ، و « الصراط المستقيم » للسيد أحمد الشهيد رحمه الله .

ونستعين على ذلك بكثرة الذكر والدعاء وشدة الخوف من نتائج هذه الأمراض الوخيمة ، واتهام النفس وعدم الثقة بها ، والاطمئنان إليها ، والبعد عن الغفلة وصحبة الغافلين ، ومرضى القلوب والنفوس المغرورين بالتسويلات الشيطانية ، والتأويلات النفسانية ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين** ﴾ [٨] .

٥ – ولنلتفت بعد تصحيح العقيدة وتكميل العبادات

---

(٥) راجع ربع المهلكات في كتاب الإحياء ، أو كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب في مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي .

(٦) راجع على سبيل المثال الباب السادس والباب الثامن والباب الثاني عشر من كتاب « تلبيس إبليس »

(٧) اقرأ على سبيل المثال الباب الثالث عشر من كتاب مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم ، ص / ١٢١ – ١٥٠

(٨) سورة الزخرف – ٣٦

والتهذيب الممكن للنفس وتخليتها من رذائل الأخلاق المهلكة ، إلى السيرة النبوية العطرة ، فى كل الحياة ، وفى الغدوات والروحات ، وفى الأخلاق والمعاملات ، وإلى حد ممكن فى الشمائل والعادات ، ولنتخذها نبراساً للحياة ، وقدوة فى الأعمال والحركات ، فنقلدها بقدر المستطاع حتى يكون لنا نصيب من قوله تعالى ووعده :

﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾ [٩] .

٦ – إن كثيراً منا ملتزم لما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من أذكار الوضوء والخروج إلى المسجد والدخول فيه ، وكذلك الدخول فى الخلاء والخروج منه ، وعند النوم والانتباه ، وما صح من أذكار الصباح والمساء ، واستئناف السفر ، والعودة منه ، ولكن نخشى أن يكون كثير من ذلك من غير استحضار لما ورد من فضائلها ، وما أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالثواب عليها ، وما لها من قيمة ومكانة عند الله وفائدة فى الآخرة ، وقد يصدر بعضه فى ذهول وغفلة ، وأحيانا كعادة يومية ، أو – فى التعبير العصرى – كـ « شريط مسجل » وقد ورد فى بعض العبادات التى لا يخفى على المسلم كونها عبادة مشروعة ، أو فريضة محكمة ، اشتراط أن يكون ذلك مع اليقين بما وعد الله به عليه من أجر

---

(٩) سورة آل عمران – ٣١ .

وثواب ، وطمعاً فيه ، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » و « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ولكن كثيرا منا – ولا أزكى على الله أحدا – لم يحسب لهذا الوصف الدقيق ، ولهذه الشريطة – الفارقة بين العبادة والعادة – الحساب الكبير حتى أصبح كثير من عبادات هذه الأمة – بما فيها من بعض أركان الاسلام كالصلاة والزكاة والصوم والحج – أعمالا رتيبة ، وعادات متبعة ، لا روح فيها ولا إيمان ، ولا احتساب (١٠) .

وقد كان الفارق الكبير بين الصحابة رضى الله عنهم ، والربانيين من هذه الأمة وبين عامة الناس ، استحضار هذه الفضائل ، والقيام بهذه الأعمال والأذكار بدافع من يقين يسيطر على النفس والعقل وشوق ينبع من أعماق القلب ، وشعور عميق بقيمتها ، ومكانتها عند الله وتقدير له فكانوا إذا توضأوا مثلا – والوضوء يتكرر مرات فى اليوم والليلة ، فأصبح فى حياة كثير منا عملا رتيبا ووظيفة آلية – استحضروا قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت

---

(١٠) وقد جاء شرح كلمتى « الايمان » و « الاحتساب » فى الحديث الذى رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة » .

من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه ، مع الماء ، أو مع آخر قطر الماء ، أو نحو هذا ،وإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، حتى يخرج نقياً من الذنوب »[١١] .

فكانوا موقنين بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واثقين بوقوعه وتحققه ، طامعين فيه ، وهكذا كان شأنهم فى لقاء الأخ المسلم والتبسم فى وجهه ، وإظهار البشر والطلاقة له ، وهكذا كان شأنهم فى التجارات والحرف وأشغال الحياة ، يؤمنون بكل ما وعد الله عليه من الأجر والثواب ، ويفعلونه طمعاً فيه وشوقاً إليه ، فتتحول عاداتهم إلى عبادات ، وعباداتهم إلى قربات ، ولو التزمنا هذا الاستحضار ، وكانت عباداتنا وأذكارنا ، مقرونة بالإيمان والاحتساب ، ومشبعة بروحها وجدنا فارقاً كبيراً بين ما كنا نعمله ونشأنا عليه فى الصغر ، وبين ما نعمله مع الاستحضار والاحتساب ، ولمسنا أثره فى حياتنا وعباداتنا .

لا نعمل عملا إلا وأن نصحح النية فيه قبل أن نعمله ونستحضر ما ورد فيه من فضائل ووعود من الله فنقوم به إيمانا وإحتسابا بدل أن نعمله عادة أو كرغبة نفسية أو ضرورة طبعية حتى الرزق الحلال ، ووسائل الكسب والمعيشة – من وظيفة أو تجارة

---

(١١) رواه الترمذى فى السنن ، فى أبواب الطهارة « باب ما جاء فى فضل الطهور »

أو فلاحة أو مهن وصنائع وهو مفهوم الحديث الصحيح ، الذى بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذى افتتح به الإمام البخارى كتابه العظيم « صحيح البخارى » وهو حديث : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » ، وهو أحد الأحاديث التى يدور عليها الدين ، وقد روى عن الإمام الشافعى رحمه الله أنه قال : « هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل فى سبعين باباً من الفقه » .

وأعظم هدايا للبعثة المحمدية ومنتها العظيمة وندائها الذى دوت به الآفاق ، أن أساس الأعمال والأخلاق ، هو الهدف الذى ينشده المرء ، والذى عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ، ولكنه واسع عميق ، « النية » فقال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وإن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص ، وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله ، والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ، ودرجات الايمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً وقتالا وحكماً وإدارة وتمتعاً بطيبات الأرض ، وتحقيقا لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية وكل عبادة وخدمة دينية – بالعكس من ذلك – تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ،

ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً ، وذكراً وتسبيحاً وقتالاً فى سبيل الله ولا يُثاب عليه العامل ، والعالم ، والمجاهد ، والداعى ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالاً . وتكون بينه وبين الله حجاباً [١٢] .

إن المأثرة الكبيرة من مآثر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا فى خصام دائم وعداء سافر وحقد مستمر ، يتعانقان فى ألف وود ، ويتعايشان فى سلام ووئام أنه صلى الله عليه وآله وسلم ، رسول الوحدة ، وبشير ونذير فى الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشرى من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الايمان ، والاحتساب والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار** ﴾ [١٣] .

إنه أعلن بالآية القرآنية : ﴿ **إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين** ﴾ [١٤] ، إن حياة المؤمن ليست مجموع وحدات متفرقة مضادة بل هى وحدة تسيطر عليها روح العبادة

---

(١٢) كتب الأحاديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، انظر أبواب الاخلاص والنية والايمان والاحتساب .

(١٣) سورة البقرة – ٢٠١ .

(١٤) سورة الأنعام – ١٦٢ .

والاحتساب ويقودها الايمان بالله والاسلام لأوامره ، وهى تشمل شعب الحياة كلها وميادين الكفاح كلها وأصناف العمل كلها ، إذا تحقق الاخلاص ، وصحت النية ، وأريد بها وجه الله وكانت على المنهج الصحيح الذى جاء به الأنبياء ، فدل ذلك على أنه رسول الوحدة والوئام والانسجام بالكمال والتمام ، وأنه البشير والنذير فى نفس الوقت ، وإنه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا فجعل الحياة كلها عبادة ، وجعل الأرض كلها مسجداً وأخذ بيد الانسان من معسكرات متحاربة متصارعة إلى جبهة واحدة واسعة ، من العمل الصالح ، وخدمة الانسانية النافعة ، ابتغاء مرضاة الله ، فترى هناك ملوكاً فى أطمار الفقراء ، وزهادا فى زى الملوك والأمراء ، جبال حلم وينابيع علم ، عباد ليل وأحلاس خيل ، من غير تناقض أو صعوبة واختلال أو تعسف [(١٥)] .

٧ – ينبغى لنا أن نعين حزباً من القرآن نحافظ عليه بقدر الامكان ، ولانتركه إلا مضطرين لعلة أو بسبب قاصر ، ونعتبر من أسعد أوقاتنا وأصفاها حين نقرأ كلام الله الذى ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [(١٦)] ، ونكون فى ذلك الحين أقرب ما يكون العبد بربه ، ولا يكون موقفنا منه أقل

---

(١٥) منقول من « السيرة النبوية » للمؤلف ، ص / ٤١٣ – ٤١٤ ، طبع دار الشروق (جدة) ، الطبعة الثانية .

(١٦) سورة حم السجدة – ٤٢

وأضعف من الجبل الذى يقول عنه الله عز وجل : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ [١٧] ، وهو جماد ونحن بشر أكرمهم الله بالايمان وبخطاب القرآن ، وقال عنهم : ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ [١٨] .

وقال : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ [١٩] .

ولم يكن تفاوت السلف وتفاضلهم فى الانتفاع بالقرآن وظهور أثره فى حياتهم بسبب الخوض فى معانيه ومعجزاته فحسب ، بل كان بسبب استحضارهم لجلال الله تعالى وعظمته ، وسمو هذا الكلام عن مدارك البشر وإعجازه ، وتذوقهم لجماله وحلاوته .

ويفيد فى ذلك شيئان : الأول الاطلاع على ما ورد من فضائل القرآن وفضائل تلاوته ، وما يترتب عليها من القرب والرضا ، والأجر والثواب ، والنفع فى الآخرة فى أحاديث صحيحة ، والثانى دراسة سيرة الصحابة والتابعين والفقهاء والمحدثين والعلماء الربانيين ، وأولياء الله العارفين ، فى تلاوتهم وتدبرهم للقرآن وشأنهم فى

---

(١٧) سورة الحشر – ٢١
(١٨) سورة الأنفال – ٢
(١٩) سورة الزمر – ٢٣

ذلك [٢٠] .

ومن المفيد النافع الذى أبدته التجارب ، هو الحرص على أن يكون اتصالنا بالقرآن اتصالاً مباشراً بقدر الامكان بحيث لا يكون بيننا وبين كلام الله حجاب من تفهيم إنسانى بشكل دائم ، يحصل الاقتصار عليه ، ويقترن بالقرآن اقترانا لا يكون الانفكاك عنه والتخلص منه إلا بجهد بليغ ، فلا ننظر فى القرآن إلا من خلال الفهم الخاص الذى فهمه بعض العلماء وخصوصاً المتأخرين منهم ، فتقع انعكاساته وظلاله وما يغلب عليه من اتجاه خاص أو نزعة معينة ، أو ملابسات عصرية ، على جمال القرآن وسموه ونقائه ، كما تنعكس ظلال الشجرات الباسقة على عين جارية صافية ، وقد يمتزج خضوع القارىء لتفسير خاص وشخصية مؤلفه واقتداره على تفهم معانى القرآن مع الخضوع لجلال القرآن وجماله ، من حيث لايشعر بذلك القارىء .

ويستثنى من هذه الكلية ماورد فى الحديث الصحيح من تفسير للقرآن وما أثر عن الصحابة وأئمة الاسلام فى شرح مشكلات القرآن وما يضطر إليه الانسان – خصوصاً العجمى – من اللجوء إلى المعاجم ، ومفردات القرآن وكتب التفسير ، وليكن ذلك بقدر الحاجة ، ولتكن العناية مصروفة إلى تلاوة القرآن وتذوقه مع الخشوع

---

(٢٠) تفيد فى ذلك بصفة خاصة مطالعة كتاب « قيام الليل » للحافظ محمد بن نصر المروزى البغدادى ، أحد كبار تلاميذ الامام أحمد بن حنبل .

والإجلال ، واستحضار صفات صاحب الكلام جلت عظمته ، ويستثنى كذلك أصحاب الاختصاص من العلماء فى فن التفسير ، والمؤلفون فى هذا الموضوع ، والمعلمون الباحثون ، أو من طلب منهم مقتضى الحال ، الافاضة فى ذلك والتعمق فيه ، وليس ذلك شأن كل مسلم ، وكل تال للقرآن .

٨ – ومن المفيد المؤثر فى توثيق الصلة القلبية بشخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والزيادة فى حبة والحرص على الاقتداء به ، كثرة الاشتغال بالحديث الشريف ومذاكرته ، ثم بكتب الشمائل والسيرة الموثوق بها ، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره ، ومن أكثر ذكر شخص وتبع دقائق أموره أحبه ، وكذلك الاطلاع على أخبار من عرفوا بالحب العميق والشغف العظيم بشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فالاطلاع على أحوال المحبين وأقوالهم وشعرهم يورث الحب ويغذيه وينميه إذا كان موجوداً [٢١] .

---

(٢١) تفيد فى ذلك مطالعة كتاب « الشفا فى حقوق المصطفى ﷺ » للقاضى عياض ، و « جلاء الأفهام » للعلامة ابن القيمْ ، ولا تخلو من الفائدة مطالعة كتب ألفت فى العصر الحديث فى جوانب السيرة النبوية وشرح عظمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكبير فضله ومنته على الأمة ، والحنين إلى بلده ومسجده ، ككتاب « الطريق إلى المدينة » للمؤلف ، وإنشاد القصائد والأبيات التى تخلو من الغلو والمبالغة ، وما يورط الانسان فى الشرك ، وما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، من مضاهاة النصارى فى الاعتقاد فى نبيهم ونبينا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وكذلك تفيد كثرة الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد جاء حث شديد على الصلاة عليه ، وقد رغب فى ذلك القرآن وقال ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى ، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً** ﴾ (٢٢) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً » (٢٣) وكذلك قال : « إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىّ صلاة » (٢٤) ، وقال له أبى بن كعب : « أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال إذاً تكفى همك ، ويغفر لك ذنبك » (٢٥) .

٩ - لابد أن نعين أذكاراً نلهج بها ونتخذها ورداً نحافظ عليه ، زيادة على الأذكار التى تقترن بأوقات خاصة ومناسبات خاصة وقد مرت فى باب سابق .

١٠ - الاشتغال بمطالعة كتب سير الصالحين والربانيين من الأمة وأئمة العلم والدين المخلصين الزاهدين الذين اتفقت الأمة على حسن عقيدتهم وكمال اتباعهم للرسول ﷺ ومعرفتهم للكتاب والسنة ، وعلمهم بغوائل النفس ومكايد الشيطان ، وإقبالهم على الآخرة وما ينفعهم فيها ، ويقول الامام ابن الجوزى - وهو المحدث الناقد - فى كتابه « صيد الخاطر » .

---

(٢٢) سورة الأحزاب - ٥٦

(٢٣) رواه مسلم .

(٢٤) رواه الترمذى .

(٢٥) رواه الترمذى .

« رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفى فى صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر فى سير السلف الصالحين فأما مجرد العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عمل فى رقة القلب ، وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالحين لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المعمول بها ، إلى ذوق معانيها والمراد بها .

وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق لأنى وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم فى الحديث العالى [٢٦] ، وتكثير الأجزاء وجمهور الفقهاء فى علوم الجدل وما يغلب بهم الخصم .

وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا لاقتباس علمه ، وكذلك إلى ثمرة علمه وهديه وسمته ، فافهم هذا ، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد فى الدنيا ليكون سبباً لرقة قلبك » .

ثم يقول :

وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الأخيار كتاباً فيه أخباره وآدابه فجمعت كتاباً فى أخبار الحسن [٢٧] ، وكتاباً فى أخبار سفيان الثورى ، وابراهيم بن أدهم وبشر الحافى ، وأحمد بن حنبل ،

---

(٢٦) أى عالى السند .

(٢٧) أى البصرى .

ومعروف [٢٨] ، وغيرهم من العلماء والزهاد ، والله الموفق للمقصود ، ولا يصلح العمل مع قلة العلم ، فهما فى ضرب المثل كسائق وقائد ، والنفس بينهما حرون ، ومع جد السائق والقائد ينقطع المنزل ، ونعوذ بالله من الفتور » [٢٩] .

وعلى الأقل يجب علينا أن لا نحمل لهؤلاء الصادقين السابقين ، والداعين إلى الله وإلى دار السلام ، العاملين بلباب الدين ، المتحـلين بحقيقته ، غلاً ولا حقداً ، ولا يضيق صدرنا عن الاعتراف لهم بالجميل ، وعن الدعاء والثناء والتماس العذر لهم ، وغض البصر عن الزلات التى لا يخلو عنها بشر ، ولا يبرأ عنها مجتهد ، وقد قال الله تعالى فى سياق المدح والثناء :

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [٣٠] .

وتقتضى هذه الآية أن نكون متورعين فى الحكم على سلف الأمة وسابقيها فى الايمان والاحسان ، بل تقتضى الآداب القرآنية والتعاليم النبوية أن نكون متورعين فى الحكم على كل مسلم ، لا نتهور

---

(٢٨) أى الكرخى .
(٢٩) صيد الخاطر ج ٢ ص ٣٠٢ – ٣٠٣ .
(٣٠) سورة الحشر – ١٠

ولا نتسرع ولا نتحمس ولا نجزم ، حتى نكون على بينة من الأمر وحتى نستوثق ونتأكد ، فقد قال الله تعالى :

﴿ ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ (٣١) .

١١ – وليكن فى حياتنا وفيما نهتم به نصيب للدعوة إلى الله ، الغاية التى بعث لها الرسل ، وأنزلت لها الكتب ، وأخرجت لها هذه الأمة ، فقد قال الله تعالى : **﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾** (٣٢) ، وقال : **﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾** (٣٣) .

وليس للدعوة إلى الله وضع خاص ، ومجال محدود ، ومنهج مقرر رتيب لايجوز العدول عنه (٣٤) .

---

(٣١) سورة الحجرات – ٦ .

(٣٢) سورة آل عمران – ١١٠ (٣٣) سورة آل عمران – ١٠٤

(٣٤) من الأعمال الدينية ما هو منصوص بوضع خاص ، كالوضوء والصلاة والحج ، ومنها ما هو منصوص أصلا وليس له وضع منصوص ، كالدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبناء المساجد ، ويدخل فيها اللباس الساتر الذى ليس فيه شيء منهى عنه . إلا أن ما كان أشبه بالمنهج النبوى الأول كان أحب وأفضل .

فهى من الواجبات الدينية المنصوصة من غير وضع منصوص [٣٥] ، وقد قال سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ **إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً** ﴾ [٣٦] ، وقال للرسول ﷺ : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾ [٣٧] .

وكذلك يجب أن لا تتجرد حياتنا عن الاهتمام بأمر المسلمين ومشاركتهم فى أحزانهم وأفراحهم وواقع حياتهم شعوباً ودولاً ، ومجتمعات ، نعيش معهم - أينما كنا - آلاماً وآمالاً ، وشعوراً وعاطفة وقد جاء فى الحديث الصحيح : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » [٣٨] ، ويقلقنا واقعهم المرير الذى يعيشونه ، ويكدر صفو حياتنا الذل الذى يلقونه والاضطهاد الذى يواجهونه ، وتثور فينا الحمية الدينية والغيرة الاسلامية ، ونقوم بواجبنا الاسلامى والأخوى ، قدر المستطاع ، ولا نألوا جهداً فى السعى لاعلاء كلمة الله واظهار دينه ، وتحقيق أهدافه ، وتنفيذ شريعته ، وإزالة العقبات عن سبيله ، ولأن نكون قوة تُخشى وتُرجى ويُحسب له الحساب ويؤدى ذلك إلى التمكين فى الأرض ، ويكون الدين كله لله .

---

(٣٥) راجع للتفصيل رسالة المؤلف « حكمة الدعوة وصفة الدعاة »

(٣٦) سورة نوح ٥ - ٩ (٣٧) سورة النحل - ١٢٥ .

(٣٨) رواه البخارى ومسلم .

١٢ — وأخيراً إن من أعظم الأشياء تأثيراً فى ترقيق القلب، والزهد الشرعى المطلوب فى حطام الدنيا، والاشتغال بما ينفع فى الآخرة، وقصر الأمل، هو استحضار قصر الحياة وفناء ما فى الدنيا وذكر الموت، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكثروا ذكر هازم اللذات» [٣٩] يعنى الموت.

وليكن لنا حظ فى مراقبة الموت، واهتمام زائد بحسن الخاتمة، فإن العبرة بالخواتيم، وقد عرف جميع أولياء هذه الأمة، وعارفوها ومحققوها، والذين شهدت لهم الخلائق بالاستقامة وعلو المكانة عند الله والقبول فى الناس ورويت عنهم كرامات وخوارق ولهجت الألسنة بالثناء عليهم والشهادة لهم بالاهتمام الذى لا مزيد عليه، بحسن الخاتمة والموت على الايمان حتى كان ذلك لهم الشغل الشاغل، والهم الأكبر يظلون وجلين مشفقين غير مدلين بحسن عملهم، واعتقاد الناس فيهم، غير معتمدين على سعيهم وجهدهم ومتذكرين للحديث الوارد:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لن يُنجى أحداً منكم عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته، سددوا وقاربوا» [٤٠].

---

(٣٩) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٤٠) الجامع الصحيح للبخارى كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل.

وليكن هذا الحديث عن الاهتمام بحسن الخاتمة ، حسن ختام الكتاب ، والله الموفق للسداد والصواب وإليه المرجع والمآب .

وقع الفراغ من الكتاب

يوم الجمعة لثلاث خلون من شعبان سنة ١٤٠٢هـ

دارة الشيخ علم الله الحسنى
راىء بريلى ، الهند

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
مهلكات الأعمال والأخلاق والموانع من دخول الجنة	١٦٧
مكارم الأخلاق ومقتضيات الكياسة والتقوى	١٦٨
أهمية الحضارة الإسلامية ، والحاجة إليهاوتناقضها مع الحضارة الغربية	١٧١
تجارب وتوصيات	١٧٥
محتويات الكتاب	١٩٩